عادل إبراهيم

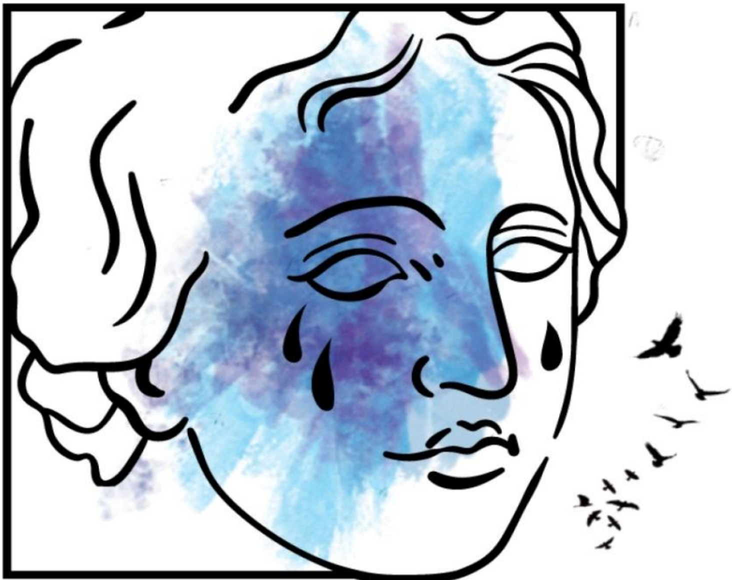

شيء ما على الرصيف

مجموعة قصصية

الكتابة وأهلها للنشر الإلكتروني

شيء ما على الرصيف

مجموعة قصصية

اسم العمل: شيء ما على الرصيف
الكاتب: عادل إبراهيم
التصنيف:مجموعة قصصية
عدد الصفحات:192
رقم الإيداع:٢٠٢٢/٢٨١٤٨
الترقيم الدولي:٩٧٨٩٧٧٦٩٠٨٦٣٥
تصميم الغلاف:محمود ناصر
إخراج داخلي: الكتابة وأهلها

جميع الحقوق محفوظة
جميع الحقوق محفوظة ويحظر طبع أو تصوير أو تخزين أي جزء من الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بأذن كتابي صريح من الناشر

مجموعة قصصية

شيء ما على الرصيف

عادل إبراهيم

زينب

أنت الآن بعيد ومنسيّ، لكنّك ناجٍ من الخطر.. تجلس في ركنك وحيدا، تقول كلام الغزل لقهوتك و.. ترتشف.. تمرّر إبهامك على شاشة هاتفك الذكي كرجل غبيّ، وتنفث دخان السجائر دوائر دوائر دوائر.. منسحبا من الدائرة. تمدّ ساقك، تسحبها إلى الخلف، تتمطّط كقط، تحكّ جلدك ككلب، ثمّ تضغط على أحبّ هذا أحبّ هذا، تلك الكلمة المرسومة على شاشة هاتفك الذكيّ ويكفيك إذن إلقاء سبّابتك على الكلمة ليعرف كلّ هذا العالم المشوّش كشعر رأسك أنّك تحبّ.. تحبّ هذا!!

تمرّر يدك اليمنى أمام وجهك لتطرد ذبابة بائسة حطّت فوق أنفك، تنزعج فجأة، وتشعل سيجارة أخرى. سيجارة مهرّبة زهيدة الثمن، ويكفيك دينار واحد لتشتري من مثلها علبة أخرى.. تسافر مع خيالاتك وتبرد قهوتك عصارة البنّ المحروق في مقهى الشعب.. ثمّ ماذا؟ هل تعود أدراجك

وتبحث عن زينب؟ أم تختفي حدّ التلاشي الرمزيّ في هذا الفضاء الكونيّ الواسع!!

زينب تعرف كلّ شيء. الحقيقة كلّها مع زينب، لولا أن تكلّموا معها.. لولا أن سمحوا لها بأن تقول، لكان كلّ شيء يتغيّر الآن.. ولكنت تنعم بالسلام.

إنّها حكاية متشابكة الخيوط، ورأس الخيط مع زينب. لكن ما دخل زينب؟ الصافي هو سبب المشكلة.. أليس هو من منعك من الزيارة؟ أليس هو الذي فتح فمه فلم تُغلق بعده الأفواه!! الصافي رجل بغيض، يعتقد دائما أنّه سيّد المعنى والأخلاق.. ينصّب نفسه ربّا ليحاسب الناس. وهو ليس إلّا كذّابا ومتعجرفا. وإلّا فقلّي ما سرّ علاقته بفتاة الحانة الشابّة؟ وماذا يصنع وحيدا حتى الآن؟ وما سرّ رحلاته الأسبوعيّة إلى السواحل؟! أليست الخطيئة وفتيات الليل.. لو أصغيت لهؤلاء الناس حولك لحدّثوك من هو الصافي.. كلّ هؤلاء يعرفون قليلا أو كثيرا عن نزواته وغراميّاته. لا تنخدع كثيرا بصورة

الورع التي يرسمها ولا بشخصية العفيف الزاهد التي يجسّدها ففي الليل ينقلب صافي إلى شيطان.. ينزع قناع التقوى ولباسه ثم يصبح فجأة شيطانا!! صدّقني إنّه كاذب في تقواه ودعواه.. لا شيء أحبّ للمحتال من تجارة الدين. فالدور سهل وتأثيره عظيم فمن منّا لا يحبّ أن يرى التقوى ترتسم داخله وخارجه. ومن منّا لا يحب أن يرى صورة خوفه من الله منطبعة على جسد الآخر. ومن منّا لا يحبّ أن يكون ساذجا في حضرة من يتقن دوره كخادم ورع لدين الله فالناس جميعا يحبّون الله، وهذه هي خطّة صافي. إبعاد الشّبهات عنه قدر ما يستطيع وليس أقدر على ذلك من التّظاهر بالعفّة والتّقوى..

لا تعد أدراجك.. لا تبخس نفسك.. اِلعنهم داخلك بقدر ما تستطيع!! اذهب بعيدا وسافر.. ما حاجتك إلى العيش وسط هذه الرّمم من البؤس والفقر والجهل.. ثمّ من هو عمّ لطيّف هذا؟ أليس مجرّد "قمّارجي" يمضي نهاره في الصّلاة ويقامر ليلا داخل فضاء "بلانات" عزيّز!! الأخلاق يا عويس،

الأخلاق.. ألا ترى في أيّ هوّة تسقط!! ألا ترى في أيّ هوّة نسقط جميعا؟!! إنّك مُستلب وضائع.. مسحوب بقيودك إلى الأسفل.. لو فقطت استمعت إليّ!! لو فقط أطعتني.. أطعتني أنا شيطانك.. لكنت الآن في مدينة أخرى، تعيش أطوار حياة أخرى.. حياة صادقة ولذيذة. حياة حيث لا بؤس فيها ولا عادات سيّئة. لا مقاهي تأكل أعمارا من الخواء والظّلمة. ثقب أسود يمتصّ كل تلك الطاقات مجتمعة ويلقي بها حيث الجنون والخيبة.. أنت نفسك تصير جزءا من الخيبة واللعنة، أنت نفسك لست إلّا قطعة لحم معجونة جيّدا بمرق بلاهتهم.. "علكة في الأفواه تصير ويغيب عنك التّدبير ويخيب المصير" أليس هذا قول العرّافة المتجوّلة، نبوءة قديمة يا سيّدي قالتها لك وأنت غضّ طريّ، لم تتجاوز العاشرة. ارتعبت، احمرّ وجهك، خفت، بكيت. بينما كان رفاقك يضحكون.. أطفال في العاشرة يلهون، رأوا العجوز فمالت نفوسهم إلى الضّحك معها. الضّحك على ذقنها. لكنّها

أبكتك أنت.. فلماذا بكيت؟ كيف فهمت عبث تلك الكلمات المسجّعة، "المرقومة" كما كانت تقول جدّتك!! ماذا فهمت منها يا رفيقي الذي أغرقته في المعاصي؟ هل استشعرت رعبا من لكنة العجوز الغريبة أم أسرك تجلّ ما وانفتاح على الغامض الموحش!! أم هي الخيبة تسكن روحك طفلا وتضاجع قلبك البريء!!

ها هي النّبوءة تصدق، وها هي الدّنيا توليك ظهرها كاشفة وجهها القبيح. وها هي هدى تتهادى بعيدا لتنام في أحضان رجل آخر وتشتمّ عطره الفرنسيّ. فاز بها بضربة حظ، حياته كلّها ضربة حظّ.. ألا تذكره؟ أنت لا شكّ تذكره جيّدا. "الفالح" زميل دراستك القديم، وبينما أمضيت أنت السّنوات تضيّع الوقت في طلب العلم عساه يرتقي بك إلى مراتب الشّرفاء، كان الفالح قد كفر بكلّ الحروف الّتي تعلّمها. لم يتعلّم غير بعض الأرقام التي تفيده في الحساب. عرف الفالح ماذا يتعيّن عليه أن يأخذ من المدرسة. الأرقام ولا شيء غيرها

ينفعه، ومع كفره بالحروف كان الفالح ينسى كلّ القيم الّتي علّموكم إيّاها في المدرسة وفي البيت.. ما نفع القيم والمال سلطان؟ أليس هو قوام الأعمال كما يقال.. وهكذا كان الفالح الذي طالما سخرتم من عثراته المدرسيّة اليوميّة ومن بلادة عقله صباحا مساءا ويوم الأحد، كان أذكاكم جميعا.. وعرف ما تحتاجه هذه البلاد. هي ليست للمفكّرين أمثالك. ليست لأولئك الذين لم يتعلّموا من الحياة غير مسك القلم. أولئك الذين أمضوا ليالي طويلة جوفاء في عذاب المعرفة، وها أنتم تُسحبون من إنسانيّتكم برمّتها بجرّة قلم.

هدى يا نغم الروح، يا بلسما للجروح، يا ندى الزهور الشذيّة، ويا أنوار الفجر الخفيّة. أحقّا صرت غريبة وبعيدة كنجمة ملقاة في الفضاء؟ كغيمة مسافرة في الصّحراء؟ كيف تنام هدى بين أحضان الفالح؟ وكيف يلتقيان تحت سقف واحد؟ كوردة وتيس.. عصفورة وقطّ برّيّ!! هل يمكن لمعادلة

كهذه أن تستقيم في علم الحساب يا شيطاني؟! يا رأسي المنخور بالذكريات والأوجاع!!

الصافي يقول إنّ هدى راضية وسعيدة. الصّافي يقول إنّ هدى مستبشرة بمكتوبها، وأنّها الآن ليست فتاة طائشة تلهو معلّقة الآمال بالوهم. بل هي الآن تعرف مصلحتها جيّدا، ومصلحتها مع الفالح. رجل طيّب وخلوق، يصلّي فروضه بالمسجد، وينام كالبهيمة لينطلق من الفجر في رحلته لكسب القوت..

هل كان حبّنا طيشا يا هدى؟ هل كان وهما؟ أهكذا تُغيّر الحياة النّاس؟!!

ليست الحياة يا سيّدي الذي أغرقته في المعاصي، ليست الحياة، المال هو لغتنا الجديدة.. المال هو فروسيّة عصرنا.. كن ما شئت لكن بجيوب ملأى، وأرصدة وبيت كبير، ويا حبّذا أن تمتلك ناقة ميكانيكيّة كذلك.. "الكرهبة" يا حبيبي

"الكرهبة"، هكذا سأحترمك مهما كان فعلك، حتّى لو تاجرت بالبشر،

لا يهمّني. المهمّ أن أحسدك وأمتلئ ذلّا، وأسارع تزلّفا حين أراك..

هدى ناضجة.. هدى ابنة عصرها.. تريدها أن تترك رجلا لا يعرف نهاية لأملاكه، لتتزوّجك أنت!! ومن تكون أنت؟ رجل عابس طول الوقت، تحرق السجائر وتلوك كلام الشعراء في المقهى!! وفي اللّيل تنفتح على الكتب.. تقرأ وتقرأ وتقرأ.. تمتلأ ضجرا بكلام الغابرين ثمّ تنام كبهيمة ولا تستيقظ إلّا بعد أن تدكّك الخالة زهرة بالشتائم المسترسلة التي لا تنتهي بل ترافقك وأنت تخرج صائما، تفتح يومك بسيجارة تشربها على معدة فارغة وأمعاء خاوية، بينما يعتصر رأسك بكلام الفلاسفة والمتقوّلين!!

الآن تستطيع أن ترتاح. هاهي آمالك في هدى تخيب وتستريح، وها أنت حرّ من ذكريات أمس.. فليهنئوا بحياتهم

ولتهنأ أنت.. يعجبني صدقهم. تعجبني حكمتهم.. ماذا عسى هدى تستفيد من شهادتها العريضة الطويلة؟ تعلّقها على الجدار كسرّ غرورها المعلّق بقلبها؟ أم تزهو بين نساء جاهلات تكسو معاصمهنّ أسوار الذهب ويمضين النّهار كما اللّيل في تصيّد حكايات الناس والجيران والتّندّر بحكايات البؤس الذي يلفّ رقاب النّاس حولهنّ؟ أم كنت تريدها أن تلقي بجسدها الطّريّ في رحابك لتلتهمها كما يلتهم قطّ فأرا سمينا ثمّ يلعق فمه؟ وبعد سنوات قليلة تترهّل هدى ويرتخي نهداها، وتتحوّل إلى كتلة شحم قليلة اللحم تتحرّك كما يزحف فرس النّهر، لتتفرّغ أنت إلى غراميّاتك ولهوك ثمّ تتشدّق بكلام الشّعراء في المقاهي البائسة بينما تغرق هي في الفقر والحاجة واهنات ألسنة الناس التي لا ترحم!! هدى على صواب في اختيارها للفالح، لو كنت مكانها لاتّخذت نفس القرار.. الصافي أيضا على حقّ، صفقة مع الفالح لا تُضيّع من رجل لئيم مثله. وهي فرصة تاريخيّة له ليظهر بمظهر

الرّجل الصالح صاحب الموقف. الرّجل الذي تهمّه ابنة خالته كما أخته.. والفالح أيضا على حقّ.. أين سيجد عروسا مثل هدى؟ شابّة متعلّمة وجميلة وطريّة!! أيقونة بلدتك الحزينة.. ووالد الأيقونة يريد الاطمئنان على ابنته قبل أن ينام نومه الأخير. لذلك يسند جائزته للفالح، وهو فعلا فالح. فالح وشاطر.. أرأيت؟ كلّ النّاس حولك أذكياء. يعرفون ما يناسبهم.. يقدّرون حياتهم ومواهبهم. أما أنت ف"على مراد الله.." منذ ولدت وأنت "عقوبة الله" لم تعرف من الحياة غير مسك القلم.. وحين يفتح الخليج العربي أحضانه ليحتويك تتحجّج بآلاف الحجج الواهية وتخلد إلى الأرض.. ما الذي يعجبك في الوطن لتبقى؟ وما الذي يخيفك من الغربة حتى تغوص في الأرض كيربوع وتأبى الرّحيل؟!! لو أطعتني لكنت هناك الآن.. رجل مقيم في الإمارات منذ سنوات، أنيق على الدوام، له سيارته الشخصيّة، منزله فخم، أرصدته في البنوك تدفّئه، لم يعرف شيئا اسمه الفقر أو

الحاجة منذ غادر البلاد، زوجته مصريّة مثقّفة، تعرّف عليها في بلد عربيّ شقيق، وأذابت قلبه حين جذب كرسيّها إلى الوراء لتجلس في إحدى اجتماعات موظّفي الشركة فقالت:" كلّك ذوق."

ما رأيك في هذا الحلم الذي أربّيه داخلك منذ سنوات قليلة؟ حين باتت الحياة هنا كطعام الكلاب العفن!! أليس حلما جدير بأن يُعاش، كما هي حياتك هنا جديرة بأن تُعاف!! لكنّك ألقيت بكلامي عرض الحائط ورحت مؤمنا ببلدك مطاردا حب هدى، ثم تقول كأبله وقد هزمت:" هدى وتونس نغمتان على نفس المقام" وهاهي تونس توليك ظهرها، وهاهي هدى بعيدة وشاردة. فماذا بعد يا مهزوم أفكارك الطوباويّة!!

أمازلت تحتاج زينب؟

فعلا أنت لا تحتاج غير زينب وكتاب..

جويلية ٢٠٢٠

الظّلال

تلك الأشجار لا تزورني.. مؤسف ألّا تفعل فأنا أحبّها. إنّها مثل أمي منذ سكنت القبر استراحت فلم تهاتفني ولم تفكّر بزيارتي. إذن ربّما كانت الأشجار تحبّني كما أمّي، ولذلك فهي لا تزورني. ثمة شيء يمنعها كما أمي، ربّما هو النوم الطويل أو حالة السّكون التي تحبّها..

أنا وراء نافذتي الآن، أتأمّل. لست لأنّي مفكّر بل لأنّ الضجر -وهو حالة ملازمة لي- أورثني هذه العادة المخجلة. كلّما أسدل الليل خيامه على المدينة أهرع إلى النافذة فأطيل المكوث والنّظر. مدينتي صغيرة وجميلة.. هكذا يبدو لي، فالجمال مسألة نسبيّة. إنّها هادئة وتنصت دائما لدرس النجوم. بمناسبة النجوم يقولون أنّها كرات ضخمة من النيران والغاز المشتعل على الدوام. لكن ورغم ثقتي بالعلم، فلا أظنّ تلك الكرات أكبر من عقلي المشتعل دائما بأفكار جنونيّة.. فكّرت مرّة على سبيل المثال، بإلقاء صديقي نوّار من هذه النافذة..

إنّه يبدو قصيرا ومفلطحا ولذلك رأيت ببساطة أنّه يمكنني الإلقاء به بسهولة..

حسنا لست مجرما أبدا، ولم يكن صديقي نوّار مزعجا أو مؤذيا لي.. فهو مبتسم على الدّوام، يضحك لأجل نكاتي السخيف، يهبني كرات الكعك المحلّى بالعسل خاصّته، ويردّد دائما أنّني صاحبه الغول.. أرأيتم؟ ليس نوّار سيّئا أبدا، ولكنه فضول التجربة وزهو الجنون.. يومها كان نوّار يضحك.. يضحك كبالون مليء بالهواء والفراغ وقال في سخف:" يا لصاحبي الغول." وعاد سريعا إلى الضحك.. لم أحتمل، أحسست سريعا بضجر يمتدّ نحو روحي ليخنقني.. فكّرت بنفس السرعة؛ ماذا لو حملته وألقيت به من هذه النافذة؟ لن يكلّفني الأمر أكثر من ثلاثين ثانية. لكن ربّما أنفتح على زهو يدوم لساعات بعدها وأنا ألمح أحشاء نوار مفرتة إلى الخارج ودماءه تفيض كينبوع من شرايينه الممزقة على الأرض. ووجهه الذي يصير فجأة بلا ملامح.. يا له من أمر مدهش أن يغدو

وجهك بلا ملامح يا حبيبي نوّار!! تختفي ابتسامتك وتعظّ لسانك كخروف مذبوح.. تماهيت مع تصوّري سابحا وشاردا لولا أن قال نوّار وقد برأ من الضّحك:" أراك عند السابعة." وانصرف.

عدت وحيدا وعدت مجنونا، ولم يأت نوّار عند السّابعة..

قبل ثلاثة أيّام من الآن، إن لم تخنِّ ذاكرتي وهو أمر مشكوك فيه لأني اكتشفت مؤخرا خيانتها وبالدليل، مرّ بشارعنا هذا رجل أصلع.. لم يكن أصلعا تماما، بعض الشعرات الطويلة مازالت عالقة بجمجمته من الخلف، جهة الدماغ تحديدا.. أعذروني إن كنت لا أجيد الوصف، وكان ذلك الرجل طويلا وضخما يتحرّك كل جزء من جسمه تلقائيّا وبصورة مستقلّة.. كان منظره مزعجا لي بل لكلّ من يراه أو يلتقيه. ولكنّ المثير أكثر هو صلعته اللامعة، وتلك الشعرات الطويلة الممتدّة بلا فائدة.. لم أحبّ مروره بشارعنا وأنا أنظره من النافذة. نظرت حولي فرأيت مطفأة السجائر قريبا منّي.

فكّرت سريعا أن ألقيها فأصيب دماغه.. كان لذيذا لي أن أرى دماءه تخضّب شعراته البيضاء لتستحيل حمراء، حمراء وهو يتهاوى راكعا على الأرض متألّما.. إنّ ذلك التخيّل ليسعدني، رغم أنّ قلبي لم يكن قاسيا، فأنا طيّب في الحقيقة..

عدلت عن الفكرة وقتها لأنّ الفرصة ضاعت، حين مضى ذلك الرجل مبتعدا بينما كنت أسرف في التفكير والتخطيط. ألم يقل المثل إنّ الفرصة تشبه التعلّق بشعر رجل أصلع؟!

بعيدا عن النافذة، فكّرت مرّة في أن أقطع إصبعي. وبعيدا عن الألم الذي تخيّلته فحسب، ظللت وقتها مسكونا بهواجس الرجولة، هل سأظلّ حينها رجلا وهل سيغدو بعدها للحياة من طعم؟!

الرجولة أيضا مسألة نسبيّة لا علاقة لها بالزهو الذي يجده الإنسان في خلوته، أنا مثلا غاب إحساسي برجولتي مرّات كثيرة ففي الاجتماع الأخير للهيئة اضطررت لا شعوريّا إلى

تملّق الرئيس، ولم يكن لتملّقي من داعٍ إذ لن يمنحني تزلّفي ترقية أو منحة ماليّة تُفرح زوجتي وتجعلها راضية عنّي ومحترما إلى حدّ ما في نظرها..

زوجتي كانت تلومني دائما، وحين أجلب لها شيئا ما ثمينا في نظري مثل فستان أو حذاء نسائي لم تكن تشكرني بل تنظر بازدراء وترفع نظرها نحوي وتخفّضه باحتقار.. وحين كنت أضمّها وأهمّ بتقبيلها متناسيا خلافاتنا العميقة، تصدّني وتسحب وجهها، ثم تميل بجذعها إلى الوراء وتتملّص بحركة ما لا أظنّني أتقنها، وقد ارتسم على ملامحها امتعاض ونفور لا يغادرها إلا وقد صارت بعيدة، بعيدة ووحيدة كما هي الآن. صارت بعيدة وصرت أنا وحيدا..

عدت أتأمّل الأشجار، إنّها في مقتبل العمر، شابّة ومشدودة القدّ. لم يغزُها الشّيب مثلي ولم تترهّل. زوجتي أيضا كانت ممشوقة القدّ وشابّة، وكانت خضراء ومزهرة مثل أشجاري البعيدة.. سأزورها في الغد وأجلس عندها لأبكي

خيبتي تحت ظلالها، وسأنفث في وجهها دخان سجائري. لاشكّ أنّي سأحرق سجائر كثيرة وأنا أبكي خائبا في حضرتها. هل قلت خيبتي؟ هل قلت شيبتي؟ يا للفضيحة، تلك الأشجار ستضحك طويلا في سرّها لأنّها سترى رجلا محطّما بلا كرامة يبكي خيبته ورجولته المفقودة في حضرة بهائها وصمودها!! أيّ قوّة تملكها تلك الأشجار حتّى أضعف أمامها؟!! وكيف لا أزال على حبّي لها وقد خانت عهدي؟!!

مازلت أذكر ذلك جيّدا، إنّه أوّل عهد لي بخيانتها، المرّة الأولى الّتي أنفتح على خداعها، على شخصيّتها الحقيقيّة.. لم أكن أتوقّع ذلك فتفاجأت، تفاجأت كمقامر خسر ورقته الرّابحة..

السماء ملبّدة بالغيوم، والطّقس بارد يومها. خمسة أنفار سكارى، تصوّروا خمسة أنفار جلسوا في أحضان أشجاري، رغم أنّه لم يكن للجلوس من داعٍ. إذ لا حاجة للظلال والجوّ

بارد!! جلسوا وشربوا وأكلوا وتبوّلوا وعربدوا وقالوا كلاما سفيها في حضرتها غير أنّها كانت راضية، راضية وسعيدة!!

اكتشفت ذلك صدفة، اضطررت للعودة إلى بيتي قبل موعدي الرّسميّ المعتاد. ذلك الموعد الّذي تعرفه زوجتي جيّدا وتقرأ له ألف حساب.. لكنّي عدت يومها مبكّرا، عدت سريعا كأنْ لم أعمل. فبمجرّد اجتيازي لبوّابة المؤسّسة عاجلني البوّاب:" المدير يسأل عنك منذ الصّباح، أسرع إليه.." وعندها تذكّرت وأسرعت إلى البيت.. عرفت أنّ المدير يحتاج ملفّ الحسابات الّذي ناولني إيّاه قبل يومين لأجري عليه مراجعة أخيرة وأُمضي حوله تقريري الّذي ينتظره. تقريري ليس مهمّا كثيرا فالمدير متأكّد ممّا توصّل إليه فلا يحتاج إلى تقرير بعد أن راقب وتتبّع الحقيقة بنفسه وبمنتهى السريّة، ولكنّ إمضائي كان مهمّا، مهمّا للغاية، فلن يمرّ ملفّ القضيّة دونه!

أولئك الأغبياء الأنذال الخونة، كيف لم يفكّروا برشوتي أو استجداء عطفي قصد التّفاهم على الأقلّ؟ هل توهّموا أنّي شريف جدّا بالقدر الذي يمنعني من العفو عنهم والتّدخل بشأنهم لإجراء صلح ما دون أن يعرف سيادة المدير؟ أم ظنّوا أنّي حديث عهد بعملي فلا أحسن كشف تورّطهم؟ أم اعتقدوا أنّهم أذكياء إلى الحدّ الذي لا يَكشفُ معه حيلهم أحد؟!

يا لهم من خونة بلهاء! إنّ حيلهم بسيطة ومكشوفة وبدائيّة، وليس من البطولة أن يكتشف أمرهم محاسب خبير وذكيّ ومشهود له بالكفاءة مثلي.. لو جاؤوني لعلّمتهم كيف تكون السّرقة!! ماذا يعني التّلاعب بأرقام الصّادر والوارد؟ أيحسبونها مؤسّسة بلا تقاليد وبلا عادات وبلا رقابة؟! البوّاب يعرف تحديدا تلك الأرقام دون أن يبرح مكانه بحكم الخبرة والمشاهدة اليوميّة ناهيك عن غيره.. المدير مثلا!!

تلك حيل بدائيّة متهافتة!!

فهمت كلّ شيء وذلك أفضل من توقّع خطرهم. فهم لم يعلموا شيئا عن خطّة السيّد المدير، وأنّه بصدد كشفهم متورّطين فيما كانوا غافلين، غافلون ومطمئنّون..

في الطريق إلى بيتي مشيت طويلا، لم تكن هناك من وسيلة نقل تقلّني سريعا. سيارات الأجرة مشغولة بمن يذهبون، والحافلات لا تجيء إلّا مزدحمة وتمضي إلى ما لا نهاية بالذين يذهبون. أمّا أنا فعائد، عائد على غير العادة وعكس سيرورة نظام الأشياء في التّحرّك. فلم يمضِ الدّوام الذي على إثر انتهائه يعود الجميع إلى بيوتهم ليفحصوا ما تبقّى صالحا من أعضائهم فيريحونها..

مشيت طويلا، سريعا، مضطربا، بخطوات واسعة تصطكّ على إثرها ركبتاي وترتخي توتّرا فأغدو مسلوب الطّاقة، بينما ينشغل عقلي بالتّفكير في الملفّ، وبطريقة ما تخوّل لي الإسراع بجلبه.. يتراءى لي سيّدي المدير ضخما عريضا، تملأ جلسته كرسيّ مكتبه الفخم، عجلات الكرسيّ تسمح

لمديرنا بالاستدارة يمنة ويسرة.. فجأة يدير كرسيّه إلى الخلف ضجرا.. يترقبني على أحرّ من الجمر، يعظّ شفته السفلى ويضغط على يديه يدا بيد.. يتساءل في حنق عن سبب تأخّري. يتوقّع خيانتي وتواطئي، ثمّ ما يلبث أن يتراجع عن ظنّه السّيّء بي.. يندفع بجسمه فتدور العجلات مطيعة ويستدير، يقابل وجهه صالون المكتب، ترتاح نفسه للوحة الورود المعلّقة قبالته، يبتسم ويجذب نفسا عميقا متشمّما رائحة عطرة.. يتذكّرني.. أرتسم داخله في صورة ملائكيّة بريئة.. يتخيّلني منقذا ورجلا خارقا.. يتذكّر أنّي من نبّهه لإمكانيّة خيانتهم. لذلك اللّبس الذي يغزو الحسابات، يتذكّر بلاهته فيغضب غضبا خفيفا ويقطّب حاجبيه. "أنا مدير هنا منذ عشر سنوات خلت.. هؤلاء أعرفهم كما أعرف أصابعي.. أكلت معهم خبزا وملحا.. ضحكت في وجوههم وضحكوا في وجهي.. أخلاقهم سمجة وقلوبهم نقيّة.. ليس من السّهل التسليم بخيانتهم.. أعمالهم دقيقة، ومتفانون جدّا

في خدمة صالح.. صالح الشّركة العامّ.. لم يتغيّبوا يوما، ولم يتأخّروا عن نداءات الواجب.. هم مهندسون محترمون، مهندس ومقاولان أعني، صالح أيضا يحبّهم لطالما أثنى عليهم ومدحهم في حضرتي.. لا تستهن بصالح، فهو رجل صالح.. صالح للخدمة وللرّبح.. لطالما ربحت الشّركة بسبب تفاني صالح، وخبرة صالح، ويقظة صالح.. لو كانوا خائنين لما تركهم صالح، كان سيطردهم شرّ طردة كما فعل بسابقيهم. كن متأكّدا فصالح لا يلعب.."

عندها يتذكّر سيّدي المدير خيانة صالح فيضحك ضحكا خفيفا يليق بالسّخرية.. يا للسّخرية! صالح كان زعيمهم، وكانوا هم عصابته.. ربّما يقول المدير في نفسه الآن كعجوز تتصنّع الحكمة:" لا حقيقة يُطمئنّ إليها ولا أمان لإنسان." أو يقول كمهزوم أخيرا:" ما من امرئ إلّا وله شيطان." حتّى أنت يا صالح؟! نعم يا سيادة المدير حتّى صالح.. صالح

ليس صالحا كما كشفت بنفسك فانتظرني آتيك بالملفّ وحينها أرسل الخونة إلى السّجن والفضيحة والجحيم!!

ما إن بدا شبحي عند أطراف الشارع حتى تراءت لي أشجاري شامخة مخضرّة وارفة الظّلال. تلك الظّلال التي أغرت خائنيّ باستباحتي.. رأيتهم بأمّ عيني يجلسون ويلهون ويقهقهون. لو حدّثني أحد عنهم لكذّبته. لزعمت أنّه يفتري عليها حسدا، لكن كيف أكذّب عينيّ؟ تملّكني الغضب وهرعت إليها.

الخمسة الخونة لاذوا بالفرار وتفرّقوا جبنا، ولم أجد في مواجهتي عدا زوجتي.. حدّثتها بحرقة وعاتبتها.

"كيف يا حبيبتي تسمحين لهم بالعبث بأشجاري؟ كيف يرتاح قلبك وقد أناخوا جمال أتعابهم وهمومهم عند الظّلال؟ أهذا هو العهد الذي عهدت به إليك؟ أهذا عطفي عليك؟"

"الأشجار تخونك.. اكتشفت ذلك فجأة على حين غفلة منك. ربّما كان قلبها فاجرا، أحببتها لكنّك وثقت بها أكثر

ممّا يلزمك، وبعد الثقة جاءت الغفلة.. غفلت عنها منشغلا وأهملتها. ظننتها بلا دم وبلا روح، نسيت أنّ الأشجار تضعف مثلنا.. نسيت أنّها تحتاجك.. تحتاج رجلا لا يمَلُّ ولا يُمَلُّ منه، فلمّا مللت كانت هي الأخرى تملُّ، تملُّ وتتململ في ترابها.. ثم لم تجد طاقة للمقاومة، الإغراء كان أكبر من مبدأ الوفاء لك فخانتك.. حكاية موجعة لكنّها بسيطة يا حبيبي.. صدّقني حذّرتها من غضبك، ذكّرتُها بحبّك لها، بتفانيك من أجلها، بقيم الوفاء، بالحبّ الذي روى أوصالها حتّى غدت أشجارا.. لكنّها ضعفت.. ضعفت كأيّ منّا.. أرجوك يا حبيبي فلتعفو عنها ولن تخونك ثانية."

قالت زوجتي معترفة لي بالسرّ الذي طالما أخفته.. لكن فيم ينفعها الاعتراف وقد خانت عهدي معها؟!!

"لا حبّ بعد اليوم للأشجار ولا وفاء."

قلت غاضبا ومنكسرا. وأمام ذهول زوجتي طفقت أجمع أغراضي كجنديّ طريد، جمعت كلّ ما يلزمني؛ مذياعي

القديم، فرشاة أسناني الجديدة (أذكر أنّي اشتريتها بمناسبة عيد الحبّ)، كتاب ألف ليلة وليلة، قميص الصوف هديّة أمّي المبجّلة، علبة الكعك المحلّى بالعسل، وبعض الملابس الخريفيّة الجديدة (كنّا في الخريف بالمناسبة). لم أنس أن آخذ ملفّ سيادة المدير، وحيث أنّي لم أجد له مكانا مناسبا بالحقيبة فقد وضعته تحت إبطي وقد تأبّط قلبي شرّا ونقمة وعزمت على القصاص من الخونة..

عندما أناول هذا الملفّ لسيادة المدير سيصبحون بعد لحظات قصيرة في خبر كان، كانوا مهندسين، كانوا محترمين، أمّا الآن ويا للأسف فقد صاروا مسجونين من أهل السّوابق..

سرت مسارا طويلا غاضبا وقد أكلت نار الحقد والنقمة قلبي.. كنت مهزوما وضجرا من فكرة خيانتهم للعهد. لمّا انتهيت أمام باب الشّركة انفرجت شفتاي عن ابتسامة انتصار ولمعت عيناي في وجه الحارس تحييه بغرور زائف.

"المدير غاضب، يجول كالمجنون بحثا عنك منذ الصّباح."

قال الحارس بلهجة أقرب إلى العتاب.

"لا تقلق، الآن ألقاه فيهدأ، بعد أن أريه هذا.."

قلت وقد حشيت يدي اليمنى لأجذب ملفّا يُفترض أنّه تحت إبطي الأيسر، ولكن هيهات لما ظننت فلم يكن من شيء تحته غير الخواء والتيه الذي صرت أسبح فيه..

"الملفّ.. ملفّ خيانتهم، أين اختفى.."

صرخت غاضبا في وجهه تائها من هول الصّدمة، فتراجع إلى الخلف. لم يبال بما أعانيه، تهاوى على كرسيّه كالذي يعييه الوقوف، سحب من تحته سيجارة وأشعلها، نفث دخانها في وجهي وابتسم منتصرا.

"المدير في انتظارك."

قال ببرود، ساحبا من تحته سيجارة رخيصة ليضعها في فمي المفتوح دهشة، فتح النّار وأشعلها فلم أجد بدّا من سحب أنفاسها في ذهول..

تركت له الحقيبة وغادرته.. لم أجرؤ على المضيّ نحو المدير، فتراجعت إلى الخلف هائما على وجهي وتائها. تركت كلّ شيء ورائي وطلّقته.. ما فائدة الوقوف أمام المدير بعد أن ضاع كلّ أمل وانتصر الخونة..

"يا لك من مستهتر، كيف تضيع الملفّ؟ الدليل الوحيد الّذي يدينهم؟ أنت غير جدير بثقتنا، ولست جديرا بعملك أيضا.. سنحوّلك إلى التحقيق، ثمّ نطردك بسبب إهمالك أو ربّما بسبب خيانتك.."

تخيّلت حديث المدير الغاضب وقراراته التعسّفيّة، صدرت منّي زفرة ارتياح.. حمدت الله لأنّي تخلّيت عن عملي وعن كلّ شيء دون أن أخسر ماء وجهي، أو أعرّض نفسي للحرج.. ما فائدة الجري والتّزلّف إن كنت خاسرا لا محالة..

ضحكت طويلا لأجل تلك الذكريات، كيف ما تزال ذاكرتي تحتفظ بتلك التّفاصيل الدقيقة وقد مضى عليها عهد طويل.. عدت أرقب أشجاري الخائنة فوجدتها حزينة منكسرة في الظلام. تذكّرت أنّ زوجتي هاتفتني مساء الحادثة..

"أضعت الملفّ.."

قلت بأسف.

"ليس بالشيء المهمّ جدّا، فقد ضاع ما أهمّ، المبادئ مثلا.. ضاع كلّ شيء فعلا"

قالت وهي تضحك..

"أعود منكسرا. لقد خسرت كلّ شيء"

قلت بأسف أكبر.

"تركت لك البيت لتحيا فيه وحيدا، ذلك عزاء لك، بعد أن ضاع كلّ شيء."

أضافت بلهجة جدّ..

"لماذا تتركينني وحيدا، يمكننا إصلاح كلّ شيء.."

قلت باستجداء وضعف. سمعت إثر جملتي الأخيرة رنّة انقطاع المكالمة.. هاتفتها مجدّدا فلم تردّ. ثمّ مرّة بعد مرّة فجاءني صوت جميل لامرأة تقول:" الرقم المطلوب مغلق في الوقت الحاضر."

عدت إلى بيتي يائسا ووحيدا، عاودت الاتّصال بزوجتي فجاءني صوت المرأة مجدّدا يقول هذه المرّة:" الرقم المطلوب غير مبرمج بالشّبكة.."

ومنذ ذلك الوقت صرت كما أنا الآن، وحيدا وبعيدا ومنسيًّا.. حتّى تلك الأشجار لا تزورني.. مؤسف ألّا تفعل فأنا أحبّها. إنّها مثل أمي منذ سكنت القبر استراحت فلم تهاتفني ولم تفكّر بزيارتي. إذن ربّما كانت الأشجار تحبّني كما أمّي، ولذلك فهي لا تزورني. ثمة شيء يمنعها كما أمي، ربّما هو النوم الطويل أو حالة السّكون التي تحبّها..

مساء السبت؛

٢٠٢٠/١٠/٠٣

غراب بلا أسنان

إنّه غراب بلا أسنان.. بدا ذلك غريبا، فقد تعودّت أن أرى أسنانه وهو يضحك!!

لم تزعجني رؤيته، بل فرِحتُ وودتُ لو أمكنني حَضنُه. فأنا لم أره منذ أيّام.. تقدّمتُ منه مبتسما ومددت يدي مصافحا. تراجع إلى الخلف، مال بجذعه كرجل نبيل وفتح جناحه الأيمن. ظهرت تحت الجناح يد غريبة؛ باطن أبيض وأصابع سوداء بأظافر حادّة طويلة!

على الأصابع شعر خفيف كالريش.. لم أخف ولم أمتعض، بل صافحته بحبّ مبتسما من القلب. لم يقل شيئا.. ظلّ يحدّق بي كإنسان يحبّني حتّى نسيت أنّه مجرّد غراب!!

عادة التّحديق تجاهي في صمت ليست جديدة عليه، كان هذا دأبه أغلب الأوقات. حسنا لنقل كلّ الأوقات باستثناء مرّة واحدة تكلّم فيها.. ربّما ليس من عادة الغربان الكلام!!

في تلك المرّة الوحيدة الّتي تكلّم فيها، لم يُطل التّحديق نحوي.. سريعا ما تكلّم دون أن يصافحني (هو في الحقيقة لم يصافحني غير هذه المرّة.)

"أنت لست رجلا." قال الغراب في تلك المرّة الوحيدة الّتي أُذن له فيها بالكلام، ثمّ لاذ بالصّمت من جديد.. لم أنزعج وقتها، ابتسمت له فضحك وبدت أسنانه.. أسنان رقيقة وكثيرة كأسنان السّمكة امتدّت على شدقيْ فمه الواسع، أسنان بيضاء لمعت وسط سواده الّذي غطّاه ككلّ الغربان..

في الصّباح، بعد أن ذهب، لم أجد ذلك الارتياح.. وجدت نفسي غاضبا. نظرت حولي في الغرفة وطفقت ألعنه وألومه..

"لست إلّا غرابا مشؤوما أحمقا!! كنت مرجوّا فيّ قبل هذا، وكنت أحبّك. ولكنّك بحماقة الغربان أضعت كلّ شيء.. خسرت صداقتي وحبّي لك يا غراب الشّؤم.. أحذّرك من الظّهور مجدّدا ومن ملاقاتي فربّما ذبحتك!!" قلت في

غضب قاذفا مرآة زوجتي الكبيرة قبالتي بمجفّف الشّعر صينيّ الصّنع، فتناثرت أشلاؤها في فضاء الغرفة إذ أصبتها في مركزها كقنّاص محترف، وأفقت..

"هذا الغراب يزعجني كعشيقة." قالت زوجتي وهي تتكاسل جنبي في السرير.. لم تنزعج ولم تغضب لأجل مرآتها المكسورة ولأجل مجفّف شعرها الّذي ربّما أصابه التّلف بعد أن رميته كمجنون..

"هذا الغراب سيأخذك إلى الجنون، أسفي عليك.." أضافت زوجتي مبدية التّعاطف. تعاطف بدا أقرب إلى الحياد والبرود كطبيب، فقد تعوّدت على صداقتي للغراب!!

×××××

"الغراب هو الشّيطان، ومصافحتك له بارتياح دليل على رضاك بأن تسلك طريقه دون إحساس بالألم."

قال الشّيخ الأحمر حين قصصت عليه أحلامي، حسنا حلمي الوحيد المتكرّر المتجدّد..

"ماذا يعرف هذا العجوز متورّد الخدّ عن الألم والشّيطان؟ يجلس في بلاهة متصنّعا الوقار، ثمّ يشرع لسانه في لوك التّرّهات الّتي يحفظها عن ظهر قلب، ولَيِّ لسانه ليحسب النّاس زوّاره ما يقوله من الكتاب، وما هو من الكتاب.." قلت في نفسي وقد انتابتني حالة من الغضب أحاول كبتها دون جدوى..

"والأسنان الّتي اختفت؟" تساءلت بفضول كأنّني أسائل نفسي..

"الأسنان أحبابك.. ستفقدهم واحدا تلو الآخر جرّاء الخطيئة، إنّه قصاص الربّ!!"

قال الشّيخ الأحمر كحكيم..

"أنت لست إلّا دجّالا أو معتوها.." طفقت أسبّه وخرجت.

في الخارج قال سكرتيره:" بشّرك الشّيخ إن شاء الله؟"

الكتابة وأهلها

"نعم، بشّرني بموتك!" قلت وأنا لا أزال تحت تأثير موجة غضبي المفاجئة. (متأسّف أيضا لأجل الورقة النقديّة الّتي دفعتها.)

اضطرب متراجعا إلى الخلف، فهدأت قليلا.

"ألست من أحبابي؟"

قلت بلهجة ساخرة هادئة مستفزّة.

"ن..عم.. بالطّ..بع" قال متلعثما، (ربّما خاف منّي ساعتها، وقد فاجأه غضبي.)

"إذن ستموت كما قال الشّيخ!!" قلت منصرفا..

×××××

"مفسّر أحلام!! يا لها من مهنة! يستقرئ المنامات، ويفكّ رموزها.. يا للبؤس!!"

قلت وأنا أدفع ركبتيْ زوجتي بركبتيّ، وأمسك يديها بيديّ.

"إنّه شيخ مبارك، شُفي على يديه الكريمتين كثير من المعذّبين. جرّب، لن تخسر شيئا."

قالت زوجتي وهي تمضغ علكا أبيض..

"سأخسر ورقة نقديّة أنفقها لأجلك لمدّة ثلاثة أيّام.."

قلت معترضا، أحاول إغراءها للعدول عن فكرة إرسالي نحو شيخها الأحمر!

"مخلوفة، صدّقني يا حبيبي. الفائدة صحّتك."

قالت وهي تضغط على يديّ في حبّ وقد لمعت بعينيها دمعتان أسيرتان تأبى أن تُحرّرهما..

ربّما كانت تُحبّني فعلا، تُحبّني دائما لا مؤقّتا.. لم تَنظر تجاهي تلك النّظرة المذيبة لقلبي مُذ أيّام الخطوبة. الخطوبة؟! كانت بكرا أيّامها فأحلتها إلى ثيب، ليس بأمر الحبّ بل بموجب العقد!! عقد الزّواج أعني لا عقد بيع..

"طبيب هو أم مفسّر؟ يجدر بي زيارة الطّبيب ما دمت سأدفع مالا." قلت معترضا ساحبا يديّ، ومتناولا قضمة تفّاح

أمضغها في قسوة.. (لا تزال أسناني في حالة جيّدة، ولم تتساقط مثل أسنان صديقي الغراب!)

"الطّبيب لا ينفع في حالتك، الشّيخ الأحمر أرضاه الله عنّا سيفسّر منامك، وسيحصّنك بالآيات.." قالت وقد قامت غاضبة، وطفقت ترتّب أشياء مطبخها.

"الآيات أم التّعاويذ؟ من قال إنّه من الله! الشّيطان أيضا شاطر والسّحرة خُدّامه.. فاوستس مثلا باع روحه لبعلزبول حتّى يخدع البسطاء أمثالك!!" قلت غاضبا ملقيا التّفّاحة الحمراء على الطّاولة!

"لم يُفسد عقلك غير الكتب! ما دخل شيخنا المبارك بزبلبزول خاصّتك؟!"

قالت غاضبة وفتحت صنبور المياه..

"لن أذهب!!" قلت ووقفت.

"أنت حرّ.." ختمت كلامها ضجرة أخيرا، بينما كنت أخطو خارج مطبخها متّجها إلى الخارج..

في الطّريق هدأت نفسي وقلت أجرّب، (أردت إرضاء زوجتي في الحقيقة فأنا أحبّها.. أحبّها وأبغض شيخها، ولم تكن تجربة السّماع للترّهات مغرية لي.) وزرت شيخها الأحمر كما طلبت..

×××××

في طريق عودتي خالجني إحساس بالنّصر، الآن يمكنني إقناع زوجتي بكذب شيخها الأبله. يكفي أن أخبرها بلهجة مؤثّرة أنّها ستموت حسب نبوءته، وأتصنّع مشاعر الحزن والرثاء لحالها عندما أتكلّم.. وحينها ستكفر بترّهاته، من ذا الذي يبقي على حبّه وإيمانه برجل يتوقّع له أن يموت قريبا؟!

ارتسمت على شفتيّ ابتسامة رضا بينما كنت أباعد بين يديّ وأصفّق وألقي قدميّ كيفما اتّفق بخطوات واسعة ضجرا وزهوا، ثمّ شرعت أصفّر.. التفتُّ فإذا أنا بجرو يتعبني محرّكا ذيله بصبصة! ضحكت ومضيت في طريقي متجاهلا تزلّفه، ظننت أنّه سيملّ منّي زهدا فيّ فيعتقني لوجه الله ويرحمني،

لكنّه ظلّ يتبعني بإصرار طمّاع مغفّل. تذكّرت قصّة أشعب مع الكلبة فضحكت.. قيل هل رأيت من هو أطمع منك يا أشعب؟ قال نعم كلبة تتبعني لا تفارقني وأنا أمضغ علكا، تنتظر أن أعطيها منه شيئا!! كلبة هي أم شاة؟ ثمّة نادرة أخرى لأشعب تروي أنّ شاته رأت قوس قزح من السّطح فظنّته حبلا، فلمّا قفزت اندقّت عنقها.. تذكّرت ثانية وضحكت ثانية!!

التفتُّ ناحية الجرو وصفّقت ليذهب فبصبص ومرّر جلده حول ساقي. ركلته وصرخت في وجهه:" اذهب." فعاد يبصبص وهو ينظرني بودٍّ أحمقٍ!! مضيت في طريقي فتبعني.

"شر.."[1] قلت وطفقت ألقي نحوه الحصوات لعلّه يخاف فيتركني، لوى هاربا راكضا فتنفّست عميقا وقلت خلصت.. عدت ألقي خطواتي كيفما اتّفق وأصفّر فإذا بجروي يركض نحوي ويلاعبني..

[1]- كلمة تقال للكلب باللهجة التونسية معناها اذهب

"هو، هو،" نبح الجرو أخيرا. ركضت بدوري عسى أن يتركني. لم يفعل، يبدو أنّ اللعبة أعجبته فطفق يركض خلفي وينبح كجرو بريء وسعيد. جرّبت تغيير الشّوارع، الولوج وسط زحام النّاس، الاختفاء والاختباء.. أعيتني الحيلة فلم أنجح في الإفلات منه والنّجاة، كأنّما كان يشتمّ رائحتي!! أيّ سرّ لودّه وتعلّقه بي رغم أنّي لم أصنع معه شيئا ينفع؟

استسلمت أخيرا ومضيت نحو بيتي وأنا أصفّر، كنت كلّما صفّرت ازداد حماس جروي كالذي تذيب قلبه أغنية ويخطف عقله وهم!!

×××××

على عتبات بيتي وقف جروي يبصبص بذيله سعيدا. داعبت رأسه فجلس واضعا رأسه على قائمتيه الممدّدتين كأسد رابض. أدرت المفتاح في القفل ودلفت سريعا موصدا الباب ورائي، ما إن قام جروي متهيّئا للّحاق بي حتّى صفّق الباب في وجهه..

"طاف، خدعتك أيّها الجرو البليد! أظننت نفسك أذكى من إنسان حتّى تخدعه؟!"

قلت بانتصار، الواقع أنّ مداعبتي لرأسه كنت خطّة أخيرة للخلاص منه، لكن ربّما لا علاقة للخداع بالذّكاء. ربّما ليس من صفات الكلاب الغدر. لكن ماذا لو تحليّت بصفة حميدة ما سامحا لجروي بالدّخول؟ أليست كارثة إذ تراه زوجتي ويجتمع عليّ جرو وغراب وامرأة؟!

"عدت؟"

سألت زوجتي سؤالها الإنكاريّ إذ أطلّت وانصرفت. ما تزال غاضبة غضبها المجانيّ، كلّ النّساء تغضب غضبا مجانيّا على سبيل الدّلال.. أسرعت خلفها.

"عدت للتّو من زيارة شيخك الأحمر."

قلت وجلست فوق كرسيّ بالمطبخ، هو موجود دائما هناك، حيث أجلس كلّما عدت إليها وهي نادرا ما تفارق مطبخها.. أتأمّلها عادة وأتمعّن تفاصيلها.. أتساءل أحيانا عن

حماقتي الكبرى في التوقيع على عقد الارتباط بها، أنا ما الذي جذبني إليها؟! أقول أحيانا كثيرة يائسا، هو قدر.. وأحيانا أخرى يسكنني حبّها.. تتراءى لي كنجمة بعيدة أنزلتها، أو وردة نادرة قطفتها. ثمّ يعود إليّ رشدي وأدرك أنّي خدعت، خُدعت كما خدع جروي المسكين..

في المطبخ لا تنتهي أشغالها.. مشغولة على الدّوام بتفاصيل صغيرة لا تنفعني، دائمة الحركة كثور الطّاحون، تسحبها قيود قدرها الخفيّة إلى دوّامة لا يُرجى منها إفلات أو منفعة.. تفتح جوّالها على صفحات الطّبخ، ومقاطع فيديو الأبراج والتّكهنات ثمّ تسمح لعقلها بأن يسافر مع ما يسمعه بينما يتحرّك جسدها كآلة مبرمجة، على هذا النّحو تمضي أغلب فترات نهارها، ولمّا تقوم من الفجر تسارع إلى هاتفها الذكيّ فتلج إلى مقاطع فيديو الكهانة وتقول مبتسمة في سعادة:" فال الصّباح، ربّنا يكتب الخير!!"

"مبارك شيخنا ومبارك قوله.." قالت ومسحت وجهها بكفّيها.

"بشّرني بشّرك الله." أضافت ملتفتة نحوي والسّرور يعلو محيّاها..

"حسنا، يخالجني شعور عميق بالأسف إذ أقول أنّ شيخك يبشّرني بموت الأحباب!!"

قلت بصوت حزين مصطنع، أنزلت رأسي إلى الأسفل شاحنا وجهي بالعبوس، وطفقت أختلس النّظر إلى وجهها بحذر..

"هل تُحبّني؟" قالت بعد صمت قصير ووجوم مفاجئ.

"طبعا.. طبعا، أنت من أحبابي!" قلت متلعثما.

"أنت إذن ترجو موتي، يروق لك لو أختفي من حياتك إلى الأبد.. تلك أمنيتك الفريدة، وليس أقدر على صنع ذلك غير الموت! ها أنت إذن تتمنّى، وتختلق الحكايات وتفتري

على شيخنا المبارك.. شيخنا مبارك اسمه لا تخرج من فمه الطيّب سوى البشارات.."

طفقت تولول غاضبة ضاربة كفّا بكفّ!!

"كيف يتسنّى لها الوثوق بشيخها أكثر من بعلها؟" تساءلت بيني وبين نفسي.

"ماذا يكون شيخك؟ إله أم ملاك؟ وفيم أكذب بخصوصه؟ ذلك ما قاله شيخك المبارك، آمنت أم كفرت، صدّقت أم كذّبت، فذلك شأن يخصّك. اطمئنّي فأنت لست من أحبابي ولا أرجو موتك ولا حياتك، أنا فقط أرجو الخلاص من الأمراض والترّهات.."

أفرغت ما في جعبتي في وجهها غاضبا وقد قمت من مجلسي، تقدّمت نحو غرفتي الخاصّة، دلفت إليها وأوصدت الباب ورائي بعنف.. وبينما أنا ممدّد على السّرير أحاول الهدوء، تناهت إلى سمعي حيرتها ومناجاتها..

"أحقّا تنبّأ الشّيخ؟ إن كان قال فقد صدق! شيخي لا يكذب.. أسفي على فراق أحبابي!!"

×××××

منذ أن كسرت مرآة عرسنا في غرفة النّوم صارت هذه غرفتي. في الصّباح ألقي تحيّة الصّباح، ألتقي بزوجتي في المطبخ، نتبادل كلاما جافّا، ثم تعطيني ورقة مكتوبة بقائمة المشتريات المرغوب جلبها، أدسّها تحتي مغادرا فتقول ليحفظك الربّ وأقول كوني بخير.

عند المساء ألقاها، نتناول الطّعام سويّا ونناجي الله ليرزقنا أبناءً، ثمّ نمضي بعض الوقت سويّا برفقة التّلفاز، نضحك، نلعب، نغنّي، نغضب.. ثمّ سرعان ما أنكفأ على نفسي في غرفتي!

هذا اليوم انكفأت على نفسي باكرا. كنّا قد تجاوزنا الزّوال بقليل، كنت غاضبا وغير مستعدّ للتّفاهم، فقد استنفذت مساحتنا الصّغيرة للرّضا، ولذلك فقد حُرمت بإرادتي من وجبة

الغداء وزهدت في ما تصنع.. تمدّدت على سريري، تناولت كتابا لأقرأ، قرأت منه شيئا يسيرا قبل أن يقرصني الجوع، تجاهلت الألم حفاظا على كرامتي وانتظرت دعوة كريمة منها مشفوعة باعتذار خالص.. خطرت لي طرقاتها على الباب، لهجتها التي تميل إلى الغنج، ونبرة صوتها التي تفيض دلالا واعوجاجا كالغواني، اعتذاراتها ودموعها المصطنعة، توسّلاتها كي أسامح.. "اعف عنّي حبيبي وهلمّا إليّ كي أرتاح!!" وظللت أمنّي النفس وأسبح بين ثنايا خواطرها إلى أن صرعني النوم في وقت لا يجدر بي أن أنام فيه.. كان السّرير يسحبني إلى الأسفل كأني أغوص فيه كما ينسحب الزّيت إلى إسفنجة.. مرّ بي صباح مرهق، مشيت طويلا وغضبت كثيرا وفكّرت عميقا، ودكّني إعياء الجدال والمواجهة.. نمت طويلا دون أن أرتاح.. كنت ممزّقا فنام فيّ شيء وصحت فيّ أشياء تعذّبني.. كان الجوع يقرصني بينما يعتصر منامي كما رأسي بالأحلام، رأيت زوجتي، لم تكن هيئتها تشبه هيئة الصّباح،

رأيتها في تلك المنامات تُشهر في وجهي سكّينا عريضة لامعة.. لم تقل شيئا حتّى.. كانت تفتح فاها واسعا كالضاحكة وما هي بضاحكة، عيناها واسعة طافية كالصّدفة الخاوية. ومن خلفها شيخها الأحمر ينظرني رافعا يديه كالدّاعي، تتقاطر من لحيته عجينة خضراء كعشّ الغراب.. نظرت حولي بحثا عن التّفّاحة التي قضمتها في الصّباح، رأيتها كما تركتها على الطاولة، لكنّها صارت بعيدة ومقرفة، غدت تفاحتي ذابلة جافّة يعمّها السّواد والاصفرار كجثّة حديثة عهد بالموت.. أردت بشدّة أن أفحصها.. أردت أن أختبر طعمها، هل هو شهيّ مثل طعمها في الصّباح؟! مددت يدي متجاهلا زوجتي وشيخها والسكّين العريضة.. استطالت يدي فجأة لتلمس التفّاحة.. لمستها فأصاب يدي عفن علق براحتها، ومع ذلك جذبتها إليّ.. قرّبتها إلى فمي أريد قضمها.. لم تكن مجرّد تفّاحة تلفة، كانت نتنة أيضا.. رفعت عيني إلى وجه زوجتي وشيطانها من خلفها.. خطر لي أنّها

تأمرني بتذوّق تفاحتي الذابلة فقضمتها مرغما.. الطعم كان مرّا، أزعجني ذلك فأغمي عليّ.. أثناء الإغماءة رأيت حلما.. ما رأيكم بنائم يحلم أنّه نائم ويحلم؟!

أثناء حلمي الثاني أو حلمي الدّاخلي، رأيت الشيخ الأحمر يصرّني إليه كما يلاعب الآباء أطفالهم. ثم ألقى بي إلى دهليز ضيّق كما تلقى الحصاة في بئر.. ورأيت نفسي أتموّج في حركة لولبيّة إلى الأسفل ككرة!! ورأيتني أصرخ وأصرخ دون أن يصدر عنّي صوت.. بدا لي الدهليز -الذي ألقى فيه- بلا نهاية، وأنّه لا خلاص لي. فصرخت في منامي الدّاخلي طويلا معذّبا كحركة أخيرة يائسة بينما كان الدوّار يطوّح بي وجدار الدهليز المدوّر ينطحني كلّما هويت وطوّحت، وعندها أفقت!! أفقت لأجد نفسي في حضرة الغراب.. الغراب مرة أخرى؟!

الغراب هنا متوّج كملك، يضع تاجا على رأسه، يجلس على صخرة، الصخرة مكعّبة الشّكل، يغطّي سطحها عشّ

غراب أخضر نديّ.. قبل أن أنخرط في دهشتي رفعت رأسي ونظرت فتراءى لي جدار لولبيّ لا يؤدّي إلى نهاية.. كان جدارا أبيض يميل إلى الاصفرار وعليه خطوط سوداء موحشة. ربّما كانت تلك الخطوط المنظّمة بنظام دقيق لا يحتويه عالمنا رموزا ذات دلالات حقيقيّة لعالم آخر!! ما أشقّ ذلك الإحساس وأنا أشعر بتيه أنساني الوقوف في حضرة سيّدي الغراب رفيقي على مدى الثلاثة أشهر الفارطة..

نظرت حولي، كان الغراب يقيم في فسحة بعيدة أسفل الدهليز الذي سقطت فيه.. كان ذلك موحشا ومخيفا حتى بدا لي أنّ أوقات الهدنة والسّلام مع سيّدي الغراب انتهت وحلّت مكانها أوقات التيه والخوف والحساب.. بدا الغارب قاضيا أو حاكما، وما الذي ينقصه ليكون كذلك؟ التاج على رأسه، والحجر المكعّب يعوّض الكرسيّ الملكيّ، ثمّ ها أنا أنتبه فجأة للصولجان بيده.. تذكّرت وأنا أحلم أنّه سبق لي في أحلام أخرى أنّ ما أفكّر فيه يتحقّق وإذا ما رأيت نقصا في

حلمي تمّمه سدنة الأحلام الخفيّون، أولئك الذين نرى أعمالهم داخل عوالم أحلامنا ولا نعرفهم! ربّما كان سيّدي الغراب سيّدا منهم!!

حدّق بي الغراب طويلا بنظرات حادّة، لكنّ تلك النظرات كانت مليئة باللّوم والعتاب.. علام يلومني؟ علام يعاتبني؟ ألأنّني سَبَبْتُهُ حين كسرت مرآة عرسنا بين المنام واليقظة بعد أن عيّرني بكوني لست رجلا!! لا، لا، لو كان ذلك سليما ما ابتسم في وجهي في الحلم الذي تلاه، وما كان صافحني بحبّ كصديق.. أسفي إن كنت جرحت شعوره بزيارتي للشّيخ الأحمر فظنّني غير وفيّ وأريد الخلاص منه بالزيارة الجوفاء المفرغة من المعنى!! لكن كيف أنسى؟ ربّما كان الشيخ الأحمر من أتباعه، فهو الذي أنزلني إليه الآن، في حلمي هذا، حلمي الدّاخلي!! وربّما حصل بينهما اتّفاق ما رغم عداوتهما فكنت أنا ضحيّة الاتفاق وقربانه؟!

ظللت مشدوها مشدودا إليه لا أستطيع منه فكاكا. ثمّ رأيته يُخرج يده المقزّزة ليغرسها داخل صدري.. اعتصرني الألم كمن شقّه سكّين، وسريعا رأيته يجذب شيئا إليه، قطعة تشبه اللّحم وما هي بقطعة لحم.. بدت صفراء نديّة لامعة كسبيكة ذهب صغيرة، غير أنّها ليّنة وشفّافة كقنديل بحر.. جذبها إليه وتركها بقبضته، وخطر بقلبي خاطر منه دون أن يتكلّم، غير أنّ فكرة تهادت إلى داخلي منه تقول: الآن صرت رجلا.. وضرب بصولجانه الأرض مرّة فرُفعتُ في ثانية واحدة لأجد نفسي من جديد داخل مطبخ بيتي.. نظرت حولي فإذا الأشياء غابت. الشيخ غاب، زوجتي غابت، وحتّى تفاحتي البائسة.. وجدت نفسي جالسا وحيدا وعاريا من الأشياء. حتّى الطاولة العزيزة اختفت ولم تبق غير الجدران التي أحفظها جيّدا.. وأفقت لأجد نفسي متأمّلا لجدران غرفتي التي نمت عند العصر بين أحضانها الباردة..

عاودني الألم بقلبي فتذكّرت حلمي، ثمّ اعتصرني ثانية واشتدّ فتذكّرت يقظتي، وعرفت أنّ الألم قرصة جوع شديدة تحوّلت إلى هبوط في إحدى جزيئات الدم الحيويّة في جسمي.. نططت من فراشي كقطّ أبله تحرّكه الغريزة فأصابني دوار مزعج.. تحاملت وغادرت غرفتي، كان الرّواق مظلما، وبيتي يغطّ في سكينة موحشة، سارعت إلى زرّ النّور فضغطته، بُدّدت الظلمة بينما استمرّ سكون البيت كالمقبرة، تقدّمت نحو مطبخنا باحثا عن شيء يؤكل.. وجدت طعام الغداء موضوعا على الطاولة بانتظاري.. خمّنت أنّ زوجتي المسكينة تركته حتى أنهض من نومي فنأكل سويّا. خمّنت أنّها لم تشأ إزعاجي كما خمّنت أنّها كانت تنتظر أن أرضيها.. كلانا انتظر تنازل الآخر بذات الشوق والحاجة واللّهفة..   غزاني شعور بالذّنب فنسيت جوعي البربريّ.. فكّرت أن أرضيها وأدعوها لنتناول الطّعام سويّا.. أغرتني الفكرة، فتقدّمت إلى الرّواق. طالعتني ساعة الحائط المعلّقة.

نظرت في السّاعة فإذا هي الثالثة فجرا.. تراجعت عن الفكرة، ثم تقدّمت مصرّا على إرضائها.. كيف أهنأ وقد نامت مثلي جائعة؟

تقدّمت نحو غرفة نومنا.. تشرّبني الحنين كإسفنجة جافّة! كيف صرت غريبا عن غرفة عرسي؟ وكيف نسيت عهود الحبّ أمس؟ وكيف عنّ لي هجران خليلتي؟ وكيف رضت بأن أكون بعيدا ومنسيّا ونحن نقيم تحت سقف واحد؟! ضغطت زرّ النّور.. تراءت لي ملقاة على بطنها كعجز نخلة.. ناديت فلم يصدر عنها صوت. اقتربت من فراشها وجلست حذوها، داعبت شعرها كأوّل عهد عرسنا، غازلتها بقولي حبيبتي السمراء، حلوتي الهيفاء (رغم كونها ممتلئة وقصيرة ككيس قمح مرصوص)، لم يصدر عنها صوت.. لم أشكّ، بل لمست جبينها فوجدته باردا كالثّلج.. لم أيأس فراقبت تنفّسها، لم تشهق ولم تزفر.. وضعت يدي على قلبها فما كان منه من نبض. لقد ماتت زوجتي..

×××××

خرجت فرأيت الجرو كما هو.. كما تركته باسطا ذراعيه بالوصيد. لم يذهب ولم يملّ ولم ييأس، بل طفق يبصبص بذيله وينبح مبتهجا حين رآني..

انتهت ليلة الرابع من نوفمبر ٢٠٢٠

منتصف الليل ونصف.

الكتابة وأهلها

شيء ما على الرصيف

صباح بارد على غير العادة، غيم كثيف تلبّد بجوّ السماء الأزرق فأحالها رماديّة داكنة. لون حزين عمّ فضاء المدينة الصغيرة، وكان الهدوء والترقّب يكتسي ملامحها كما بدت تلك الملامح على وجوه سكّانها من الكادحين البسطاء الذين خرجوا يطاردون قوت يومهم باكرا. بينما كانت أنفار المصلّين تعود أدراجها إلى البيوت بعد أن امتلئوا روحانية وسلاما وقد أدّوا صلاة الفجر في المسجد..

يُقال إنّ أوّل من اكتشف الأمر هو عبيدة عامل النّظافة حين مرّ بالشارع وحيدا يقود عربته ليجمع الأوساخ التي تعمّ الشوارع ويضعها في عربته كعادته كلّ يوم. يقال إنّه اكتشف الأمر بالصدفة حين ألقى بصره تجاه الرصيف علّه يجد شيئا مهملا يضعه في عربته أو شيئا مهمّا يضعه في جيبه أو مخلاته. فلعبيدة مخلاة يضع فيها الأشياء المهمّة التي تتسرّب خطئا إلى الزبالة أو تلك الأشياء التي لا يعرف مُلقيها

قيمتها. نظر عبيدة تجاه الرصيف ولم يطل به المكوث هناك، بل قاد عربته بلا مبالاة وقال بصوت مسموع:" لا يبدو هذا قمامة وهو في نفس الوقت ليس شيئا مهمّا لي"، وانصرف..

على الساعة الثامنة صباحا من ذلك اليوم مرّ شابان من هناك، نظرا إلى الملقى على الرصيف ثمّ تبادلا النّظرات في دهشة، وعادا ينظران ناحية الرصيف مرة أخرى. قال أحدهما:" لعلّه حادث عابر!!" وقال الثاني:" ربّما هناك سرّ.." لكنّ ضيق الوقت كان يدعوهما للمغادرة سريعا، فهما على موعد هامّ مع رئيس لجنة التّشغيل وعليهما أن يستغلّا الفرصة فلعلّه ثمّة أمل ما، أو شيء ذو قيمة يحدث.. ولذلك فقد مضيا سريعا إلى موعدهما وكأنّ شيئا لم يحدث..

مرّ آخرون بالرصيف ومضوا دون مبالاة أيضا. أيّ خطر يمكن أن يتهدّد من يطيل المكوث هناك أو من يقف حتى لثانية واحدة؟ ربّما هذا أحد الأسباب التي جعلت الناس لا

تبالي بالأمر. إنّ المكوث هناك مسؤوليّة وورطة حقيقيّة فما بالك لو فكّر أحد ما بإبلاغ السلطات أو قرّر ذلك؟!!

بعد نحو ساعة أو أقلّ، غزت الحياة مدينتنا الصغيرة. الموظفون انهمكوا في أعمالهم يديرونها من خلال مكتب وجدار بلوريّ عازل، المدرّسون وتلاميذهم التحقوا بمقاعد دراستهم، والهامشيّون التصقوا بكراسي مقاهيهم منصرفين إلى لعب الورق وتمضية الوقت أكبر مآزقهم في هذا الجو الغائم المفتقد لدفء الشمس.. وفي أثناء ذلك مرّ عجوزان بالرصيف ولاحظا الشيء الملقى فوقه سريعا.. اندهش العجوزان وتسمّرا مكانيهما واقفان.

- لعلّه سهر كثيرا ليلة البارحة.

قال العجوز الأول بلا مبالاة واضحة.

- لا أستبعد ذلك، ربّما كان مثلنا يحبّ اللهو.

ردّ العجوز الثاني ببرود ودونما اهتمام.

- ألا يُحتمل أن يكون بالأمر جريمة ما؟

- مثير ولا أستبعد ذلك.. من قال إنّ مدينتنا الصغيرة لا تشهد أحداثا مهمّة وعظيمة.

قال العجوز الثاني وقد هزّته بهجة وعلت محيّاه ابتسامة أزاحت الستار عن فم متساقط الأسنان كمغارة.

- يجدر بنا إعلام السلطات.

قال العجوز الأول باهتمام جادّ.

- والأحجار؟

قال العجوز الثاني مخرجا صندوق الدومينو الصغير، ومبتسما بخبث.

- ثمة شيء مثير ها هنا ويجدر بنا أن نكون مسؤولين ونتحلّى بال... بال... لست أدري أيّ شيء علينا التحلّي به، لكن يتعيّن علينا فعل شيء.

- اللعب بالأحجار، هذا هو الشيء المهمّ.

- أنظر. ثمّة شيء غريب ممدّد هنا. من المحتمل جدّا أن يكون ميّتا أو ربّما مقتولا.. ولسنا ندري شيئا

الكتابة وأهلها

بخصوص معاناته ليلته البارحة.. لاشكّ أنّ ألما عميقا صاحب انتقاله إلى هذه الحالة العجيبة.. أعتقد أنّ الوقت مناسب لتحمّل مسؤوليّتنا في إعلام الشرطة وليس مناسبا للّعب.

- **أنت دائما هكذا. تتكلّف ما ليس من شأنك، وتبحث عن المتاعب.**

قال العجوز الثاني ومضى مترنّحا في طريقه بسبب هرمه، محاولا استنشاق هواء نقيّ ومبتعدا عن رفيقه الذي صار عليه تحمّل المتاعب. ظلّ يتأمّله وهو يفكّر، "كيف يا ترى انتهى إلى هذه الحالة المؤسفة؟ إنّه لا يبدو خردة، رغم أنّه قد تحطّم تماما.. ومع ذلك يجب التحقّق إذا كان مازال صالحا لشيء."

تقدّم نحوه يريد فحصه، لم يجرؤ على لمسه، بل ظلّ يمعن النّظر بعينيه، فحص بتمعّن مقدمته ثمّ الوسط ثمّ المنتهى.. "يا له من شيء فاسد مؤذي! ولكن ما الذي يتعيّن

عليّ فعله لإنقاذه من الحياء؟ يبدو في ورطة، وعن قريب سيؤذينا جميعا بعفنه.. أليس كلّ شيء يفسد يتعفّن؟ إذن فمدينتي على أبواب محنة!! وعليّ والحالة هذه فعل شيء ينفع.."

انحنى العجوز يريد لمسه، يريد فعل شيء، لكنّه سرعان ما تراجع وقرفص.. لم يجرؤ على لمسه فجلس مقرفصا يفكّر في حزن. كان رأسه منحنيا ولمّا رفعه مجبرا بعد أن حجب عنه شمس النّهار ظلّ شبح واقف، طالعه وجه يبتسم، وجه أسمر نحيل تتّقد أعلاه عينان حادّتا النّظرات.. لم يكن إلّا شابّا فضوليّا أخرق كما ظنّ العجوز..

- تبدو شيئا محطّما وبائسا أيّها العجوز!! يا للدهشة، منذ زمن لم تنعم عيناي برؤية رجل محطّم..

قال الشابّ الأخرق، مبتسما بمكر، وقد لمعت عيناه خبثا.

- لست أنا يا سيّدي بل هذا الشيء هو الذي تحطّم.. المسكين لقد عانى كثيرا..

قال العجوز ببلاهة، مشيرا إلى الرّصيف.

- ومن أدراك بمعاناته؟

سأل الشاب مظهرا اتّهاما لا يخفى..

- كلّ من يراه هكذا يعرف مدى معاناته..

أضاف العجوز وهو يستقيم واقفا..

- لا أحد غيرك يدري

قال الشّاب متّهما العجوز أخيرا. غير أنّ العجوز لم ينتبه لقول الشاب الأخير أو هو لم يفهمه..

- هل يمكنك أن تساعدني.. لا يجوز تركه هكذا!!

قال العجوز وهو يتقدّم ناحية الشيء الملقى على الرّصيف يريد إبعاده.

- لا تلمسه..

صاح الشّابّ، فتسمّر العجوز بمكانه كتمثال فزعا.

- تريدني أن أشاركك في الخطيئة، بدل أن أشهد عليك؟

أضاف الشّاب.

ولكن يا بنيّ ما ظننت بي؟ هل ظننت أنّي من أفقدت هذا الشيء بهاءه؟

قال العجوز بحنق من يدفع عن نفسه تهمة..

- أنا لا أظن بل متأكّد.. أيّها العجوز، لا تحمل همّا فقد حدث ما حدث ويجب أن تواجه الأمر بمسؤوليّة. ولكن ماذا ستواجه في النهاية؟ لا شيء فعليّا.. أظننت أنّ الحساب لأجل فعلتك موجع كفعلتك؟! لا شيء أشدّ إيلاما من فعلتك.. لقد أفقدت هذا الشيء المسكين بهاءه وحطّمته، رغم أنّه ما يزال صالحا للعمل سنوات أخرى.. أنت أفسدته وعليك المواجهة بمنتهى المسؤوليّة..

- لكن..

قال العجوز بلهفة يريد الدّفاع عن نفسه، غير أنّ الشاب قاطعه وطفق يصيح في الشارع الخالي من المارّة يريد جمع النّاس حوله.. "أيّها الناس، أيّها الناس، أقبلوا إليّ سريعا، أقبلوا وانظروا ما صنع هذا العجوز المخادع.. لقد حوّل للتوّ شيئا ما عظيما إلى الخسران والخيبة!!"

لم تمض غير لحظة قصيرة من الوقت حتّى ظهر نفرين من النّاس، وتقدّما يرقبان ما يحدث. ثم تلا ذلك تجمّع خلق كثير.. لا يدري أحد كيف ظهر كلّ أولئك على سطح الأحداث فجأة. ظهورهم يشبه الخروج المفاجئ للنّمل من قُراه وتحلّقه حول قطعة حلوى تعرّت فجأة!!

تحلّق النّاس حول المشهد وأخذوا يرقبون بعيون الفضول والدهشة ذلك الشيء الملقى على الرّصيف لدرجة السّهو عن العجوز وعن المنادي الذي جمعهم.. اتّسعت العيون وفُغرت الأفواه وهم يتأمّلون ذلك الشيء الغريب..

"يا للدهشة، لم أر في حياتي كلّها شيئا مثل هذا!" قال شابّ طويل مدّ عنقه خلف الجموع مراقبا.

"رائع أن أنعم برؤية هذا الشيء المذهل في مدينتي الصغيرة." قالت امرأة سمراء نحيلة كعود خيزران.

ثم ساد لغو كثير وهرج وضجّة لا تكاد تُفهم.

"هدوء رجاءً.." قال الشابّ الفضوليّ فانسحبت الأعناق نحوه تنظر وجهه وتنتظر قوله، وقد خيّم الصّمت في أرجاء الحادثة..

"أتدرون من هو المسؤول عن هذا الحدث المبهر الذي نادرا ما يقع في مدينتنا؟" أضاف الشاب كخطيب بزهو، فتفتّحت العيون حوله انتباها وترقّبا.

"ذلك البطل هو ذاك العجوز الأبله؟ أتصدّقون هذا؟!" قال الشّاب بغرور الذي يكتشف شيئا مشيرا إلى العجوز المسكين، فاتّجهت الأنظار نحو المُشار إليه ترقبه بتفحّص

لحظة، ثم ما لبث أن انفجر الجمع ضاحكين.. ضحكوا كثيرا ببهجة أو بسخريّة، ثمّ طفقوا يصفّقون له!!

"عمل رائع أيّها العجوز." قال واحد من الحاضرين يميّزه فم واسع وشفتين غليظتين!

"كيف فعلت هذا وأنت عجوز؟" أضاف آخر من الجمع ضيّق العينين بدهشة!

"تبدو محترفا أيّها العجوز." قالت امرأة نحيفة، وقد لمعت عيناها إعجابا!!

في اللحظة التي سها النّاس عنه، فكّر العجوز في الهروب. لكنّ بدا وكأنّ شيئا شغله بشدّة مانعا إيّاه من التحرّك.. ربّما هو الرغبة الفضوليّة في معرفة آراء الناس حول الموضوع الغريب، أو اقتناعه الدّاخلي بالبراءة، وربّما شعورا نبيلا منه بضرورة المكوث بحثا عن حلّ مناسب لهذا الشيء الملقى على الرصيف.. أمّا بعد أن تابع وعرف ما يمكن أن تقوله الناس وقد أبدت إعجابها بفعله المزعوم المنسوب زورا

إليه، فقد بات على وشك أن يقرّر الهروب فورا.. لا يُنكر العجوز أنّ إحساسا بالبطولة قد لامس فؤاده المضطرب للحظات فملأه زهوا خفيفا.. من منّا لا يحبّ أن يكون بطلا يثير الإعجاب؟

لكن اعتبارا لنزاهته، فإنّ السيّد العجوز سرعان ما طرد عن عقله تلك الأفكار المغرية بالبطولة المزعومة.. وفي لحظة من الانبهار الشّعبي به أطلق ساقيه ركضا فجأة..

"أنظروا، عجوزنا يركض في خفّة.. أمر مذهل!" قال بعض النّاس من المتابعين معجبين.

"ما يزال رشيقا!" قال رجل كسيف البصر..

والحقيقة أنّ منظر العجوز الرّاكض كان مضحكا، كانت ركبتاه تصطكّ وقد برزت إلى الأمام ومالت ساقيه اعوجاجا، وهو يُجاهد مبتعدا كالذي يريد الاستفاقة من كابوس!! كان العجوز يلهث وهو يلاحق أنفاسه المضطربة المتعبة ركضا

عسيرا شاقّا في شارعٍ طويل خالٍ من المارة حتى استوقفه شرطيّ.

"عجوز يركض كرياضيّ! أمر طريف فعلا.."

قال الشرطيّ بسخرية، في ما كان العجوز يلهث، مواجها صعوبة في تنفّسه..

"توقّف عن اللّهث كالكلاب وحدثني عن الأمر." أضاف الشرطيّ برطانة مخمور.

"أدركني وأنجدني يا سيّدي من هؤلاء الناس، ينسبون لي جريمة أنا منها بريء كحمامة.." قال العجوز وهو يلهث..

"حمامة؟!" ردّد الشرطيّ متعجّبا، ثم طفق يضحك.

بدا الشرطيّ ساخرا، غير أنّ العجوز لم يشعر قطّ بالمهانة. كفّ عن اللّهاث، حاول أن يقوّم اعوجاج ساقيه ليبدو مستقيما في حضرة الشرطيّ، خانته ركبتاه فظلّ معوجّا منحنيا عند مستوى الرّكبة. لم يهتمّ بل طفق يشرح ويتحدّث.. ربّما كان يقول شيئا مهمّا لكن لم يسمعه أحد. لم يصدر من العجوز

صوت، كأنّما سُرق صوته، وظلّ يشرح ويُجاهد من أجل إيصال أفكاره ملوّحا بيديه ومشيرا إلى مكان الحادثة.. حرّك يديه كثيرا، وبدا وكأنّه يصرخ، وتناثر اللّعاب من فمه وولول لسانه بينما كان الشرطيّ يبتسم ويومئ برأسه!!

بعد لحظات أقبلت سيّارة الشّرطة نحوهما. أركبتهما، سارت بعيدا كثيرا عن المكان، ثم أنزلوا العجوز، وسلّمه سائق السيارة ورقة وابتسم. انطلقت السيارة بعيدا وهي تولول. فرك العجوز الورقة وقرأ مندهشا:" يرجى من سيادتكم إزالة شيئكم من على الرّصيف كي لا تُثار بالمدينة ضجّة.."

انتهت ٢٠٢٠/١١/١٣، نحو الساعة العاشرة والربع ليلا.

لا فائدة

"ترى هذا المنحدر كالجرف؟ هناك انقلبت سيّارة إسماعيل!"

قال السائق بينما كانت السيّارة تمضي دون توقّف.

"لا شكّ أنّه كان سكرانا. فليرحمه الله."

قلت معقّبا.

"لا، تلك هي الرّواية المتداولة الّتي يُراد لنا تصديقها. أنت لم تحيا هنا، ولذلك يغيب عنك الكثير من الأسرار.."

ردّ السّائق محتجّا.

"أسرار؟" تساءلت مستغربا ومعترضا وهازئا..

خفّض من سرعته وأدار رقبته ملتفتا، وأشار بيده بعيدا.

"ترى ذلك الوادي على الجانبين وقد شقّه الطريق إلى ريفنا؟"

طفق يتحدّث فأومأت برأسي مصدّقا كي يستمرّ..

"هناك على اليسار أرض مجوّفة جرداء، غير أنّ أشجار الكاليبتوس تحوّط بها وتخفيها عن الأنظار كالجنّة. وفي ذلك المكان الغريب الفريد وقع ما هو غير متوقّع.. ذلك هو مكان الحادثة، وذلك هو السرّ.. رحم الله إسماعيل، ذهب ضحيّة تهوّره!!"

على قدر ما كانت لهفتي شديدة لمعرفة السرّ، على قدر ما كان إحجامي.. سكتُّ كأنّي أُلجمت بلجام حين هممت وأردت بشدّة أن أسأل محدّثي.. فغرت فمي دهشة ولم أهتد إلى سؤاله. الكلمات اختفت ولم أجد ما أقول ولم أهتد كيف يسأل الناس بلهفة عن شيء؟ وكأنّي بلا لغة في تلك اللحظة.. التفت السائق نحوي كأنّه يريد أن يضيف شيئا، غير أنّه اكتفى بالابتسام وأرسل نحوي نظرة ذات مغزى، وعندها أوقف السيارة..

"ألن توصلني إلى المنزل؟" سألته.

"لا، الطريق إلى الدوّار سيّئة، أعذرني عليّ الذهاب في طريق العودة قبل أن يحلّ الغروب.." قال.

وضعت براحة يده دينارين ونزلت. لوّحتُ له بيدي مودّعا بينما كانت السيارة تستدير وتنعطف راجعة من نفس طريقها. فكّرت أنّي لو ضاعفت له المبلغ لأوصلني إلى البيت عن طيب خاطر.   أصحاب سيارات النقل الريفيّ هؤلاء يحبّون الدنانير، كلّ دينار يصنع معهم فارقا عجيبا، مع ذلك هم جشعون، ويطمعون بالمزيد كلّما حانت فرصة أو خمّنوا أنّك من ميسوري الحال.. عليّ إذن أن أسير باتّجاه منزلنا الريفيّ سيرا على الأقدام، وعليّ أن أتجلّد حين تئنّ قواي تحت ثقل هذه الأكياس الثقيلة نسبيّا. أقنع نفسي مثلا بالفرحة العارمة التي تجتاح أمّي حين تراها فتنبري داعية لي وشاكرة. إنّ فرحة أمي الكبيرة هي حين تراني.. أمي كما أبي يحبّان رؤيتي من وقت لآخر، تنفرج أساريرهما ويبتسمان لرؤيتي قبل أن تنهال عليّ أمّي تقبيلا واحتضانا. أمّا أبي

فيصافحني ببرود ويقبّلني مرتين فقط، ويقول مخاطبا أمّي:" خفّي عليه شوية خليه يرتاح."

أتقدّم في طريق ريفيّ خالٍ من المارّة في هذا الوقت، السماء تكتسي بلون أحمر والشمس تأفلُ تهيّئًا للغروب. على جانبيّ طريقي كروم التين الشوكيّ تمتدّ بلا نهاية وصولا إلى حدود الجبل.. ألاقي في طريقي ماجل الرهبان على شمالي، أتوقّف لأرتاح وأنظر نحوه.. تسكنني الرهبة فجأة، كلّما مررت من هنا سكنتني رهبة، وأحيانا قليلة أخرى تُضاف إلى رهبتي وحشة بغيضة.. لا أدري من أين يتأتّى ذلك الإحساس المربك.. ربّما من مخازن الذاكرة، فأنا أسمع من صغري حكايات عن الرّهبان، ليس المقصود بالرهبان هنا كهنة الكنيسة المسيحيّة، ولا لفظة دينيّة، بل تعني شيئا ما خفيّاً مثل الجنّ أو الشيطان يظهر في لحظات خاصّة لأناس معيّنين.. هو أناس عاديّون من مثلنا يتحدّثون دائما عن أشياء غريبة تحدث. تلك الأشياء المربكة المخيفة التي لا تحدث

لنا غير أنّها تهزّنا من الداخل عميقا حين نسمع عنها.. الروايات هنا تتحدّث دائما عن ظهور جنّي خاص يسمّى الرهبانيّ أو الرهبان، يظهر عادة لرجل فيختبر شجاعته، إن كان شجاعا وهبه كنزا، وإن كان جبانا قتله أو عذّبه.. نظرت عميقا طويلا، وانتظرت أن يظهر لي شيء أعتدّ به على وجه اليقين.. لم يظهر شيء أبدا، ولا حتى سراب أو توهم خيال يمرّ سريعا أمامي من صنع عقلي.. ليس سوى سكينة رهيبة ووحشة، وقشعريرة سكنت عظامي من رهبة الموقف تلاشت سريعا تحت صدى وعيي والحقيقة.

مرّت دقائق مالت فيها الشمس إلى الغروب، وبدا الليل كوشاح أسود يُلقى بتأنّ على الدنيا. حملت أكياسي وواصلت مسيري. ترتسم بين عينيّ صورة والديّ يبتسمان لي. أبي في ساحة الحوش يرقبني بنظراته الآملة مبتسما، وأمي تقبل ضاحكة من الدّاخل لتحضنني وتقبّلني كثيرا.. تحت وقع توقّعاتي تنبح كلاب لا أراها.. لا أحد غيري يشقّ الليل،

الريفيّون طيّبون. يمضون النّهار كادحين، وعند الغروب يعتكفون في بيوتهم. يصنعون طعاما حيّا، يصلّون، يشعلون حطبا في مواقدهم الطينيّة مستعينين به على البرد في الشتاء، يلتفّون في الأغطية، يسبّحون ويتسامرون بسرد الحكايات.. وجود العجائز في بيوتهم بركة. فعندها وحولها يتحلّقون ويسمعون الحكايات والخرافات.. تلك متعتهم وتلك بهجتهم، وذلك ما غرفت منه ليالٍ طويلة.. الجيل الجديد لا يعرف الكثير عنه، الموت غيّب كثيرا من الحكايات والأجداد. والذي لم تغيّبه الموت، اعتكف وانزوى مسبّحا محتفظا بحكاياته وأسراره. بينما غرزت الصبايا عيونهنّ في حكايات العشق التركيّة المعروضة على شاشات التلفاز، والأولاد ارتكنوا إلى هواتفهم الذكيّة ينقرونها مستمتعين ومستلبين..

على عتبات مدخل سور التين الشوكيّ هرِع نحوي كلب أبي ينبح، تركته يصل أعتاب قدمي، عرفني فطفق يتمسّح

حول ساقيّ.. عرفني، لا أدري إن كان ميّز ملامح وجهي أم اشتمّ رائحتي!! ربّما كانت لي رائحة خاصة تشتمّها الكلاب..

"عميرة، لقد جاء المهندس.." هتف أبي يدعو أمي لمّا رآني. ابتسم كما هي العادة. تقدّمت نحوه يحدوني شوق وحبّ وفرح.. حضنته وقبّلته فقبّلني مرتين ثم دفعني بعيدا عنه.

"الكلب صار يعرفك. ربّما لأنّه يأكل بقايا الدجاج كلّما حضرت." أضاف أبي وضحك. ثم ظهرت أمّي إلى باحة الحوش، سارعت نحوي واحتضنتني بابتسامة عريضة كشفت معها أسنانها.

"لا يحرمنا من ها الطلّة.. جلبت لبانا؟" قالت أمّي ونحن نتبعها إلى غرفة الاجتماع..

×××××

غرفة واسعة، التلفاز في منتصف هيكل خشبيّ مجوّف أشبه بالخزانة غير أنّهم يسمّونه المكتبة هنا، الهيكل يلاصق الحائط الداخليّ، أمام الجدارين الأيمن والأيسر أريكتان خشبيّتان عليهما حشيتان من الإسفنج، وتتوسّط الجدار الخارجيّ نافذة واسعة مغلقة اتّقاءً لبرد الشّتاء. في الوسط موقد طينيّ نسميه كانونا.. أمي أخذت مني الأكياس لتودعها المطبخ، وأبي يجلس على الأريكة، يلتفّ في برنسه البنيّ ويسبّح..

تعود أمّي بصينيّة الطعام، كسكسيّ عليه قطع الخضار الكثيرة، ثم تسكب فوقه قدحا من الحليب الساخن. نسمّيه "الرغيد" هنا..

"لو علمنا بمجيئك لذبحنا "فرّوجا"! ولكنّك كالسّحاب، تأتي فجأة وتمضي فجأة!!" تقول أمي معتذرة عن الطعام الذي لا يصلح للضيوف.

"لست ضيفا يا تاج رأسي.." أقول رافعا عنها الحرج.

"ليس في الدنيا ألذّ من كسكسيّ الرغيد الذي تصنعينه."
أضيف مادحا بصدق القلب.

"تسافر في الدنيا كيفما شئت، وتنقع في كلّ ماعون، وتشرب من كلّ المشارب الغالية. لكنّك تكتشف أن لا شيء يماثل طعاما بسيطا تصنعه أمّك لذّة.. لأنّ اليد التي صنعته هي التي سهرت على لحمك الضعيف حتى صرت رجلا!!"
يقول أبي معقّبا، فأتوه خلف كلامه وأنسى الأكل للحظات.

أبي رجل وقور، كثير الصمت، وإذا ما تكلّم فليضيف إلى الذاكرة شيئا مثل حكمة لا تُمحى..

أبتسم وأنخرط في الأكل. اللحظات التي نقضيها مع الوالدين لذيذة ودافئة. نمتلئ خلالها أمانا ومحبّة.

"أبي، ألم تحدثني مرّة عن خروج الرهبانيّ وظهوره لك؟"
أقول وقد انتهيت من أكلي، فيحدجني بنظرة فاحصة مستغربة، ثم يلتفت تجاه أمي فاغرا فاه..

"يريد أن يقول يوم خرج لك المدّ[٢]!!" تقول أمّي وتتقدّم نحوي حاملة صينيّة الطعام.

"هنيئا.." تضيف وهي تغادر ناحية المطبخ.

"حدث ذلك وأنا شنتي[٣] صغير إثر عودتي من عرس.. كان طويلا جدّا، أسفله خشب، وأعلاه دخان يصل عنان السماء حتى لكأنّك لا تدرك له بداية طاردني كعفريت من الثعابين، ولم يتركني إلّا وأنا على مشارف الدوّار.. شيطان مجرّد عبث من الشيطان، لو خرج لي الآن ما خفت منه بل لكنت حرقته بالاستعاذة.. آية الكرسيّ حصن ضدّ العبث والشيطان.." قال أبي مفسّرا

" لكن ما ذكّرك به؟" أضاف مستفسرا.

"حادثة إسماعيل.." أجبته طامعا في المزيد منه.

---

[٢]- كائن خرافي يمتدّ على شكل عمود خشبيّ دقيق، ويكون أعلاه الذي لا ترى بدايته خيط دخان. يزعم القرويين في تونس ظهوره في الخلاء عند الليل لمن يمرّ وحيدا.
[٣]- طفل يافع يميل إلى الشاب باللهجة التونسية.

انتابته موجة ضحك، تنحنح، تراجع إلى الخلف ولفّ ساقا حول ساق، داعب لحيته، ترك سبحته، ثم نظر تجاه إبريق الشاي ينفث بخاره فوق الكانون. رفع رأسه وتشنّق نحو باب الغرفة متطلّعا إلى أمّي فظهرت تتمايل في مشيتها بتأثير آلام المفاصل التي تعانيها أغلب الأوقات..

"تعالي واسمعي من ابنك المتعلّم، فهو يحبّ الخرافات مثلك.." يقول أبي مازحا وساخرا.

"الخرافات تسلّينا، فقد رُبينا على وقع عجائبها صغارا قبل أن يجيء الراديو والتلفاز.. أمّا جيل اليوم فيحبّ النقر على الهواتف العريضة.. الدنيا كُشفت وأصبحنا نعيش ما هو أغرب من خرافاتنا.." تقول أمي وتضحك، تتّجه ناحية إبريقها، وتملأ الأقداح الصينيّة شايا. الشاي هنا مرّ ومركّز. يقولون إنّه يشدّ عصب الرّجال، ونقيصة لمن لا يشرب منه أو لا يستسيغ طعمه..

يتناول أبي القدح منها ويقول:" يريد أن يعرف حول حادثة إسماعيل.."

"ليرحمه الله ويهبنا لطفه بعده. وماذا يريد أن يعرف عنها؟ الحكاية معلومة والحاكم[٤] بحث وقال إنّها حادثة عاديّة.." تقول أمي وتناولني قدح الشاي المرّ.

"ليرحمه الله. المسكين وجدوه أزرق اللون في سيارته المقلوبة في ذلك الجرف المشؤوم." أضافت بتعاطف.

"ابنك يشير إلى الخرافات. إلى الشائعات.." يقول أبي بحماس العالم ويرتشف من قدحه المرّ.

"لم تكن أبدا خرافات ولا شائعات. لكن الله أعلم بما حدث على وجه الحقيقة."

تقول أمي فأنتفض وأتحمّس. شيء ما مثير يدغدغ داخلي، أسألها بفضول ولهفة:" أيواه أحبّ أن أعرف تلك التي ليست بخرافات ولا شائعات."

[٤]- كناية عن دوائر الشرطة والحرس الوطني باللهجة التونسيّة.

تجلس أمي إلى جانب أبي وتمدّ جذعها نحوي:" ألا تعرف حول القصّة شيئا؟"

تقول فأهزّ رأسي نافيا. فتضيف كحكّاء متمرّس:" كنت صغيرة حينها. لست صغيرة مثل طفلة ولكنّني صغيرة بمعنى شابّة، لم أتزوّج بأبيك غير أنّ ذلك حدث بعد سنتين من الحادثة.. في تلك الأيام كانت بيوتنا قليلة ومتباعدة.. الناس لم تختلط ولم تتقارب مثل الآن، ولم ينتشر نور الكهرباء في الحيطان كما الآن.. كنّا نخاف الليل كما نخاف القيظ، لأنّنا تعلّمنا أنّ تلك الأوقات هي أوقات الجنّ والشياطين والأرواح الهائمة، ولأنّ رؤوسنا كانت ملأى بتلك الحكايات عن الأغوال والأهوال. وقتها جاءنا أبي وجهه متبدّل كأنّ على رأسه الطير، يرتعد من الخوف والصدمة.. أمي رحمهما الله معا، أوقدت له نارا، وخلعت عليه برنسا، وسقته لبنا، وهي تقول بسم الله، بسم الله، سيدي يا رسول الله، ما حلّ بك يا جمعيّ كأنّك رأيت شيطانا؟! وظلّ كذلك إلى أن هدأت

فرائسه وهو يتدفأ ويتجرّع اللبن. فقال ليتني لم أمرّ من هناك.. ليتني سرقت نفسي باكرا مثل حطّاب.. وكان أبي في ذلك الوقت مزارعا يمضي مع عمّي حطّاب قبلة فيقلّبان أرضا بعيدة ورثوها عن جدّي، وقد تعوّدا أن يعودا إلينا عند المغرب. ولكن في ذلك اليوم عاد عمّي حطّاب ولم يرجع أبي. سألنا عمّي عنه فقال لا تقلقوا، الجمعيّ أحبّ أن يقلّب الأرض وأخذه الحماس فلم يكتف بما صنعنا، وقال أزيد ساعة حتى أنهي ما بدأته من شغلٍ لهذا اليوم. قالت أمي لأبي لمّا هدأت فرائسه، ماذا جرى يا جمعيّ لك حتى ترتعد كقصبة في الريح؟ قال الجرف الجرف.. صبيّة يغطيها الشعر إلى قدميها ترقص وتبسم لي، تقترب منّي وأنا ذاهل مرتعب لا أقوى على المضيّ. متسمّر كأنّما تثبّتني المسامير إلى الأرض. وهي حولي لا تبغي عنّي حولا.. ثم جثت وبكت، وصدر صوت عجيب لا هو بالنسائيّ ولا بالرّجاليّ.. صوت كأنّه لفح نار على وجهي يحاصرني، يصرخ فيرتدّ صداه موغلا في الفلاة

حولي موحشا، بريئة، بريئة يا ظالم قدّام العالم بريئة.. لا أدري كيف اهتديت وعاد لي عقلي فاستعذت من الشيطان الرجيم وطفقت أجري في البريّة على غير هدى وصوت الصبيّة يلاحقني ويدكّني حتى انتهيت على مشارف الدوّار فخفّ عنّي. ولا أدري أنا كيف اهتديت إلى الوصول إلى هنا.. بسم الله بسم الله قالت أمّي له تريد التسرية عنه، وناولته مصحفا ليقرأ منه حتى يذهب الشيطان عنه. ومنذ ذلك اليوم لم يتأخّر أبي عن موعد الغروب يوما وإن كان في جماعة تحرسه وتؤنسه. لكن انتشر الخبر كالنّار في الهشيم وجاء الناس يسألونه عن العبّيثة[٥] التي كادت تهلكه لولا أن تداركته رحمة الله. فتحدّث وأفاض ومتّع وتمتّع إلى أن صار الحديث حول الحادثة يزعجه ويُثقل عليه.. الناس لمّا سمعت الحكاية وداخت في الرواية هزّها الفضول فتقدّموا ناحية الجرف يتأمّلون أمر الله ويتعجّبون. وتكرّر الأمر مرات عدّة

[٥]- العبيثة وتسمى أيضا روحا، كلمتين في اللهجة التونسية تشير إلى روح شرير أو تمثل الشيطان لصورة مخيفة كالإنسان العابث والدابة المتكلمة

حتى ألف الطريق صبيانهم فحدث ذات مرّة أن أخرج صبيّ من تراب الجرف خصلة شعر وافية، جعدة فاحمة لولا أن خالطها التراب فأبلى بعضا من بهائها، وناولها أبيه فتفحّصها وقد غلبت عليه الدّهشة والذّعر. ثم خطب في الناس (اليوم نخبّروا الحاكم..)[6] هذا شعر امرأة، (بن آدم يا مخاليق الله.) وفزع الناس وجاء الحاكم وبُلبلت القرية كلّها، وبحث أبي أيّاما عديدة عند الحاكم.. حفروا التراب فوجدوها.. جثّة امرأة فائقة الجمال حديثة العهد بالموت.. خلصت الأبحاث أنّ قاتل المرأة هو أخوها، جاء بها من أرض بعيدة إلى هناك، وهناك قيّدها مثل الناقة فجثت على ركبتيها، فخنقها بعد أن عنّفها وضربها كثيرا على وجهها.. رحمها الله كانت وليّة مسكينة بريئة ذهبت ضحيّة أقاويل الناس التي لا ترحم.."

---

[6]- لهجة تونسية معناها اليوم نعلم السلطات، وكذا الجمل بين الأقواس وبعض الكلمات غير الفصحى فإنها لهجة.

ختمت أمّي كلامها فقلت:" يا فاطر السماء والأرض.. حقّ لناجي سائق اللواج[٧] أن يخاف."

"ناجي مسكين، يخاف حتى من ظلّه!" يعقّب أبي على كلامي ويضحك، ثم يصبّ الشاي في قدحه ثانية.

"ومن ذلك اليوم، يدّعي كثير من الناس ظهور العبيثة لهم.. منهم بشير الذي ترك سيّارته هناك وجاء راجلا هاربا، ومنهم بوجمعة رحمه الله الذي يدّعي الناس أنّ فمه معوجّ من أثر خروج العبيثة له." أضافت أمّي. فعقّب أبي على كلامها مصحّحا:" بوجمعة اعوجّ فمه من جلطته الأولى بينما قتلته الثانية، ولا علاقة للعبيثة بما أصابه.."

"لكن ما علاقة هذا بحادثة إسماعيل؟" قلت مستفسرا.

"خرافات يا بنيّ، خرافات.. العبيثة تمثّل الشيطان في هيئة عجيبة للعبث مع بني آدم وجعله يحيد عن الطريق

[٧]- اللواج، سيارة لنقل المسافرين تحوي تسعة مقاعد، وهي شبيهة بالميكروباص عند أهل الشرق.

فيشرك بالله ما لا ينفعه. هذا كلّ شيء.." يقول أبي بحماس رجل متديّن.

"لكن الخوف يقتل، والشيطان يدفع الإنسان إلى أذيّة نفسه. وأحيانا يؤذيه هو." تقول أمّي معقّبة ومصلحة.

"تقصدين أنّ العبيثة قتلت إسماعيل؟ أو أنّ ظهورها أخافه فلم يسيطر بعدها على عربته؟" قلت مستوضحا.

"الناس تقول وتزيد، والعالم الله.." تجيب أمي، وألمح في عينيها وحركة يديها إعراضا عن المضيّ في الحديث في هذا الشأن فأصمت. ويقول أبي:" لا سلطان لشيطان على إنسان إلّا من باعه روحه." يقول ذلك ويختفي من الغرفة نحو مخدعه. أمّا أنا فأواصل السهر مع أمّي..

×××××

تتركني أمي فأبقى وحيدا في الغرفة. أتهيّأ للنوم وأختفي تحت غطائي الصوفيّ. أتقلّب في فراشي، أغلق عينيّ وأفتحهما. الصبيّة ذات الشعر لا تفارق مخيّلتي. تتراءى لي

جاثية وهي تصرخ بريئة يا ظالم بريئة قدام العالم بريئة، تتراءى لي سيارة إسماعيل المقلوبة.. يركض المدّ خلفي وأنا أجري أمامه خائفا، أرى الرهبانيّ يخرج من خلف الماجل، يبسمُ لي ثم يمدّ يده طويلا إلى الأعلى حتى تغيب في السماء.. يفتح فمه فتظهر أسنانه مخيفة، وتتهدّل جفونه نَعِسًا.. يريدني أن أخاف، لا أخاف فيهبني كنزه أو يدلّني على مكانه فأقول أَخْرِجْهُ وأنا أخنقه غير خائف.. يُخرجه ويضعه بين قدميّ لمّا تتبيّن له شجاعتي.. أضحك من تهيؤاتي، أغمض عينيّ مجدّدا وأحاول أن أنام.. لا أنام!!

تدقّ ساعة منتصف الليل، أترك فراشي فجأة وأتحرّك، أضع عليَّ معطفي الطويل، أخرج إلى الحوش أتأمّل النجوم. تنصرف نظرة منّي خارجه فتتراءى لي الساحة وأشجار الزيتون وكروم التين الشوكيّ، تتراءى لي مخيفة وقد اتّخذت أشكالا عجيبة تشبه التماثيل والحيوانات والبشر. تلفُّ قلبي وحشة

التماهي مع الأوهام والسكون. تخطر ببالي فكرة مجنونة فأغادر الحوش وأقتحم الغموض..

أتقدّم في طريقي بعيدا. الليلة أجرّب حقيقة الخرافات، أيّها الرهبانيّ أنا قادم إليك فاظهر لي وأحضر كنزك واختبر شجاعتي.. مهما تكن فأنا بشر ولن يهزمني كائن يخشى الظهور مثلك.. أتقدّم في طريق مظلم باتجاه الماجل فلا أسمع غير نباح الكلاب البعيدة. أصل أخيرا، أشقّ سطر التين الشوكيّ فأجد نفسي رأسا في مواجهة الماجل.. "والآن يا صديقي أما آن لك الظهور؟ ها أنا وحيد كما تطلب، وهاهو الوقت وقتك، منتصف الليل بعد في ليلة باردة.. ماذا تريد أكثر؟ اظهر لأعرف صدقك وأعرّف العلم الذي درسته حدوده!! إن كنت ظاهرة فيزيائيّة فاظهر، وإن كنت شيطانا فهلمّا لنرى صمودك أمام آية واحدة.."

طفقت أتحدّث باحثا عن الرهبانيّ.. لم يظهر شيء.. ومضى وقت طويل لا أعلم مقداره وأنا متسمّر في مكاني

أعاني قسوة البرد ولم يظهر شيء.. ضجرت فتقدّمت أكثر أقترب من الماجل حتى غدوت فوقه. ألقيت بصري تجاه فوهته فإذا الماء يلمع قليلا تحت ضوء النجوم وسط سواد يغشاه.. سَرتْ داخلي رعدة وضعف وهزّني الخوف. أنا ما الذي جعلني أفارق فراشي لأخرج إلى الخلاء مطاردا فكرة مجنونة خطرت لي؟

التفتُّ حولي فإذا أنا بوحشة سكنتني، ونباح الكلاب يشقّ سكينة الليل. عدت أنظر إلى الماء والسواد فإذا بوسطه يهتزّ هزّة عجيبة وإذا بشيء يلامس قدمي فتملّكني الرعب وعمّني البؤس حتى كدت أهوي في الماجل فيسجّل الناس بعدي أنّ الرهبانيّ استدرجني من بيتي ليغرقني في ماجله ثم تكثر الحكايات وتنتشر كالنار في الهشيم.. لا أدري كيف ملكت نفسي فالتفتُّ مبسملا فإذا هو كلبنا قد لحق بي يمسح ساقيّ. دهشت فابتسمت وقفلت راجعا وكلبي يتبعني أسائل نفسي كيف افتقدني فلحقني؟

في الصباح خبّرت أمّي، قلت لها إنّي مضيت البارحة أقفو أثر الرهبانيّ، ولو كانا الجنة والجرف قريبان من هنا لقفوت أثر الصبيّة صاحبة الشعر..

"وهل ظهر لك؟" قالت بعدما أفاقت من الصدمة ولامتني كثيرا..

"لم يظهر شيء، بل قفا كلبنا أثري فتمسّح على قدميّ وعاد بي إلى البيت!!" قلت شارحا الشيء الوحيد المدهش الذي وقع.

"تريد أن يظهر لك رهبانيّ وبصحبتك كلب؟ ألا تعرف أنّها أقوام تخاف الكلاب؟!" قالت أمي مفسّرة وطفقت تضحك منتصرة..

"لا فائدة.." قلت بيني وبين نفسي وأنا أقف لألحق أبي الذي مضى إلى الحقل..

تمت، الأحد ٢٠ ديسمبر ٢٠٢٠، الساعة الثامنة ليلا..

□

الكتابة وأهلها

صدفة

صدفة. صدّقني إنّ الأمر لا يخرج عن دائرة الصدفة.. في أيّامه الأخيرة قال أشياء مفيدة. يمكن أن نعتبرها اعترافاتٍ أخيرة. قال مثلا إنّه لا يعرف البحر ومع ذلك فهو متأكّد أنّ نهايته ستكون غريقا، ومع أنّي لا أؤمن إلّا أنّ الأمر صدق.. تصوّر؟

لا تنظر إليّ هكذا. قلت إنّي التقيته صدفة حين كان الستار يُسدل أو يَكاد. لم تكن لي به علاقة من أيّ نوع ومع ذلك أحببته جدّا.. لا، لا، لم أكن أبدا من أتباعه، أنا فقط متعاطف معه، معجب به، هذا كلّ ما في الأمر..

عرفته من خلال الكتابة. كنت مهووسا وكان هو لذيذا، يلقي الكلام كيفما اتّفق فيأتي لذيذا مرصّعا كما النجوم في السّماء. قرأت له كثيرا حتّى أدمنته. ثمّ وفي لحظة إعجاب قرّرت أن أكتشفه.. لم أجده منيرا أو مثيرا. فقط رجل غريب يقيم وحيدا في شقّة مُستأجرة، ينام نهارا ويسهر ليلا كثيرا،

حتى الفجر أحيانا. يدفن رأسه بين الكتب ويقرأ، يقرأ مطوّلا ويمضي وقته أحيانا أخرى في حرق السّجائر والكتابة كمجنون.. حكاياته مع الحبّ انتهت منذ عشرين عاما خلت. أحبّ بنتا تسمّى وردة وهي أيضا أحبّته، لكنّ سنّها كان غير مناسب فتزوّجت وتركته.. لم تتركه حقيقة بل أجبرها أبوها على تركه والزواج بغيره خوفا عليها من البوار. البنت في مجتمع الثمانينات كالأرض، يجب أن تزرع وتُخصّب قبل أن يفوت الوقت ويحلّ بها التّصحّر!! وهو رجل ملقيّ في ذاك الزمان في أرض بعيدة طالبا للعلم وطالبا لمن ينفق عليه كمتسوّل. ورغم أنّ وردة كانت تماثله سنّا إلّا أنّه وجب أن تتركه. هو لن يجهز قبل الثلاثين، فماذا يصنع أهله الكرام بعروس في الثلاثين؟ ثمّ لا تنسى الثقافة؛ ماذا يصنع رجل واسع الثقافة بامرأة ريفيّة لا تعرف من الحياة غير صنع الخبز وحلب البقرة؟ ومنذ ذلك الوقت عرف نساءً كثيرات ولم يعرف الحبّ..

راقبته، نعم راقبته، أعترف أنّي راقبته.. لم أراقبه فحسب بل أمضيت ساعات أتتبّعه وأجمع المعلومات حوله، لكن دون رغبة في الأذية ولا طمعا في عطيّة.. راقبته بدافع الإعجاب. تعرّفت إلى المقاهي التي يُمضي بها الوقت، بعضها فاخر وبعضها شعبيّ رديء. وذلك ليس لغزا بل علامة!! عندما يكتب شيئا جديدا تتلقّفه القرّاء بلهفة وتدفع له الدوائر، عندئذ يكون مرفّها، فيحلو له التبذير والتّرف.. ينفتح عقله لمناقشة أحوالٍ فكريّة معقّدة، ينفتح على الأسئلة والقضايا والفلسفة، وكنت أنا أجلس قريبا منه لأسمع بشغف ذلك الكلام الغريب الذي لم أفهم منه شيئا!! إنّه يتكلّم بلغتنا ولكن ليس ككلامنا ولا كتركيب كلامنا.. كلام أجوف لذيذ غير أنّه بلا معنى وبلا أثر وبلا فائدة. كنت أدفع ورقة نقديّة عالية العلامة لنادل المقهى كي أحتسي مشروبا رديئا وأسمع، تصوّر؟! أمّا بعد أن يكون ماله قد اختفى وراح بين المقاهي الفاخرة والحانات ومحلات الرّقص والفجور، فإنّه يعود ليرتاد

مهزوما مقاهي البسطاء الأبرياء.. لا، على العكس.. لم يكن منزعجا ولم أره يوما كذلك.. رأيته كأنّه شخصين مختلفين.. لكن في كلتا الحالتين كان سعيدا.. عندما يغزوه الإفلاس، يتأقلم سريعا مع البؤس. يجالس البسطاء في مقاهيهم، يلعب الورق معهم، يدخّن معهم سجائر رخيصة، يضحك من القلب ويقول كلاما سخيفا وسفيها دون حرج.. عندها يبدو لي بائسا.. إنّه لا يفرق عنهم في شيء، يماثلهم تماما ويتقمّص جيّدا شخصيّة تطابق شخصيّاتهم. وما الفرق؟ إنّه يكون في تلك الأيام غارقا مثلهم في الديون، مفلسا، عابثا، ماجنا، تافها، يعيش على هامش الحياة والتاريخ ولا يعنيه أن يضيع.. ثم ما يلبث أن يغطس وينكفئ على نفسه ولا يخرج عندها من بيته إلا نادرا حسب ما كانت تقتضيه الضرورة من خروج لجلب مستلزمات العيش الجافّ.. أظنّه يكون منعزلا لأجل الكتابة، إذ أنّ حاله تنقلب إلى الرخاء سريعا إثر تلك الغطسة المطوّلة والانقطاع المفاجئ عن الحياة والمدينة..

يعود مجدّدا إلى الرفاه، ويتلذّذ بالجلسات المطوّلة مع أهل الفكر وأهل المال. سمعته مرّة يقول:" من حكايات المزبلة تتولّد الحقائق، ومن البؤس تولد الروائع!!" لا أفهم ذلك القول ولن أفهمه مهما حاولت تفكيك أسراره وشفراته، لكني أجده لذيذا داخلي ومزلزلا لي!! ورأيته مرة أثناء مراقبتي يتناول صكّا بنكيّا ويصرّه إليه بحبّ.. لم أر صكّا بنكيّا في حياتي إلّا تلك المرة لكنّي خمّنت أنّه صكّ، لأن شعار البنك الشهير كان عليه لامعا ومذهّبا.. لا أدري لماذا أخذه ربّما باع شيئا، لكني رأيت ابتسامته العريضة، ورأيت من ناوله الصكّ يبتسم بإغراء وغمز له وطرفت عينه كما يغمز الفاسق لعاهرة.. أنا لا أعرف الرجل صاحب الصكّ، لكني خمّنت أنّه رجل من رجال السياسة، لأني ألفت رؤية ذلك الوجه على شاشة التلفاز.. اجتماعات النواب تحديدا. تصوّر؟!

نعم أظنّه كان يكتب المقالات في الصحف أيضا، فقد رأيته ذات مرّة يدلف إلى مقرّ صحيفة شهيرة. سجّل دماغي

اسمها، وغادرت. استلقيت في بيتي أتقلّب على الجمر.. صرت مهووسا به. تصوّر؟ ومن الصباح أفقت وانطلقت دون قهوة ودون فطور أيضا، سارعت إلى كشك الصّحف واشتريت صحيفة.. الصحيفة عينها، الصحيفة ذاتها.. بحثت عنه بين صفحاتها كمجنون حتى طالعتني صورة مزوّقة له.. بدا في الصورة مهموما.. بدا مفكّرا، غير أنّه كان أنيقا ووجيها.. قرأت ما كتب ولم أستمتع هذه المرّة. لم أجد صدقه، وجدته يكذب ويثرثر بلا معنى، غير أنّي عرفت وقتها سرّ الصّك! هذا كلّ ما في الأمر..

نسيت الأمر، سقط من عيني ألقه الذي سحرني.. تركته وعدت إلى حياتي. لم أره على امتداد ستّة أشهر، ثم ظهر فجأة على سطح الأحداث من جديد.. رأيته مجدّدا في مقهى من مقاهي الهامشيين، يلعب ويعربد ويضحك ويقول كلاما سخيفا سفيها.. عاد بائسا إذن، هكذا خمّنت، غير أنّي لم أراقبه هذه المرّة بل رأيته بالصدفة.. تصوّر؟

هذه المرة قرّرت قرارا جريئا متينا.. قرّرت أن أحادثه، ربّما أجد هنا فرصة للكلام قبل أن يغطس ويتعملق من جديد، ويعود لحياة الأسياد فلا أجد فرصة لأكلّمه، ولا أجد جرأة ولا مساحة مناسبة للحديث أما الآن فهي فرصة..

أذكر أنّي اقتربت منه، من طاولته. كان يلبس معطفا خشنا مقعّر الجوانب، لم يكن يلعب، كان يجالس رجلا بائسا وأقرعا..

"سيّدي، أريدك في أمر، هل تسمح لي بمجالستك على انفراد؟" قلت، فتردّد وهمّ برفض طلبي.

"اسمح لي أن أنال شرف دعوتك لاحتساء فنجان قهوة مدفوع الثمن معي." أضفت، فهزّته الكلمات وهزّتني.. هو رجل خبير بالكلمات، يعرف كيف يلاعبها ويراقصها، الكلمات معه عاهرة ساكنة العواطف وهو وحده يعرف كيف يحرّك أنوثتها الدفينة ويجعلها ترتعش لذّة من جديد. أمّا أنا فلا أدري كيف اهتدى لساني لصوغ ذاك الخطاب اللذيذ

الذي يحرّك كلّ نفس، لدرجة أن هزّتني كلماتي كأني آخر يتلقّاها بشغف، تصوّر؟!

لا أدري إن كانت الكلمات هزّته أم هزّه التوق إلى فنجان قهوة مدفوع. فكما قلت لك عندما يعود إلى البؤس، يصبح شخصا ثانيا.. شخص مثير للشّفقة ويسرّه لو دفعت له ثمن سجائر أو قهوة.. استجاب لدعوتي، فلم أترك الفرصة تمرّ.. دفعت له سيجارة رديئة من سجائري وطفقت أتحدّث باختصار..

"أنا معجب بك.. سابح في ملكوت كلماتك، غارق في بحر حكاياتك، أنا مهووس، علّمني الطريق أسلكه.." قلت بلهجة تميل إلى الاستجداء البغيض، وخرج من قلبي ما كنت لا أعرفه، تصور؟ لم أكن أدري أنّي أريد أن أسلك طريقه. لكن يبدو أنّه سحرني..

أشعل سيجارتي الرديئة، سحب نفسا عميقا، حدجني بنظرة متشكّكة، ثم نفث كل الدّخان في وجهي. لم أنزعج،

كنت شخصا رديئا، يعفّرُ وجهي بالدّخان كلّ يوم، من رديئين وبؤساء ووضيعين.. قلّما نفث في وجهي رجل محترم دخانه..

"كيف تريدني أن أعلّمك طريقك إلى كينونتك أنت؟ تعلّم أوّلا أن تكون.." قال وارتشف، وظلّ ينظر في وجهي منتظرا قولي..

صمتُّ، ذهلت، بهتّ، عُقد لساني فلم أهتد إلى كلمة واحدة.. أمّا هو فلم يُنزل بصره عنّي.. كان مثل طائر البومة، عيناه واسعتان يفتحهما فيّ اتّهاما وتأمّلا..

ما إن انتهى من سيجارتي الرّديئة حتّى غادرني كأنّما كان يجالس سحابة.. تركني لسحابة من الأفكار تحوم داخل رأسي. ماذا يعني الطريق إلى الكينونة؟ وكيف أتعلّم أن أكون؟ ظللت لبؤسي عابسا، أرتشف من القهوة وأدخّن، ذاهلا وتائها أفكّر بلا جدوى حتى أُنهكت..

في صباح يوم الغد ذهبت إلى عملي. كنت ضجرا يتماوج رأسي بالخواطر، والطريق وعر أسلكه بلا شهيّة. حين وصلت،

تراءت لي جموع من النّاس تلتفّ مجتمعة تتزاحم حول الحظيرة. ورأيت عامل البناء زميلي يبكي وينتحب.. تقدّمت جزعا إليهم وعرفت أنّ الأمر جلل، رأيت وأنا أطلّ من بين الجموع الغفيرة صالحا زميلنا ملقيّا على الأرض ميّتا..

"كما الخنفساء.. مات ممعوسا!!" قال أحد الرّجال وضرب كفّا بكفّ تحسّرا. ثم أشار بيده.

ألقيت بصري حيث أشار، فإذا بالسّقف مكوّم على الأرض. يا لحظّك يا صالح، متّ ممعوسا تحت السّقف كخنفساء..

لا أدري كيف اهتديت لذلك، ولكنّي هرعت سريعا إلى بيت الكاتب تاركا الجموع لحزنهم. طرقت الباب فإذا هو مفتوح وما من مجيب.. خمّنت أنّه نائم، فتقدّمت راكضا أريد إيقاظه والتّكلّم معه.. لا أدري ما الذي دفعني لذلك لكنّي كنت مشغولا بصالح ومستعدّا للقيام بأيّ شيء من أجله، لم أبك ولم أحزن لكني كنت أفكّر وأحترق.. ثمّة مرحلة أعظم

من الحزن والانكسار والبكاء.. مرحلة ننفتح فيها على الحقائق فلا نبكي ولا نحزن بل نحترق ونفكّر!!

دلفت إلى غرفته، وقلت صائحا:" انهض فقد مات صالح ممعوسا!!" ثمّ نزعت غطاءه بعنف، وجدت الدّماء تغطّي صدره، وبلعومه لا يزال يدفع الدّماء إلى الخارج.. لا أدري لماذا تذكّرت عندها دراغولا، ولا أدري لماذا صدق اعترافه، فقد قال: إنّ نهايته ستكون غريقا، وها هو الأمر يصدق.. تصوّر!!

-انتهت الاثنين، ٢٠٢٠/١١/٢٢، الساعة الثالثة والعشرين وعشر دقائق بتوقيت جلمة

الذباب والفكرة

إنّها تجول حولي كما الفكرة؛ تقف على عتبات الذّاكرة قبل أن تشرع في أشغال الحفر!

"لا قدرة لها على الحفر.." قلت مخاطبا نفسي بشيء من المزح وشيء من الجدّ.

ماذا يقول لها عقلها إن كان لها عقل؟ إنّني أطردها فتعود إليّ سريعا كأنّما أحفّزها للعودة.. في البدء تكون وحيدة مثيرة للشّفقة، ثمّ ما يلبث أن تنضمّ إليها أخريات من مثلها، بنفس شكلها وملامحها..

"كيف يفرّقون بين واحدة وواحدة؟" تساءلت عن عشيرتهم متخيّلا أميرهم أو رئيسهم أو حتّى مليكهم، هل على رأسه تاج؟! هل يرتدي بذلة؟ هل يطيعونه عندما يُصدر حكم الإعدام في واحدة؟!

واحدة؟ لماذا أجزم دائما أنّها أنثى؟ فمن غير المعقول أن تكون كلّها إناث!! فقد رأيت ذات مرّة واحدة تمتطي ظهر

الكتابة وأهلها

الأخرى.. إذن لا شكّ أنّ بينها ذكورا!! هذه التي تزعجني لا يمكن أن تكون ذكرا، إنّها تطنّ كما تولول امرأة في حيّنا.. سليطة اللّسان تُدمي العيون، تقفز من على أرنبة أنفي إلى جبيني ومنه إلى عيني.. أسبّها لاطما وجهي محاولا قتلها بضربة كفّي..

"ماذا لو كانت ملكة؟" تساءلت وضحكت.. لا يجوز أن تكون هذه ملكة، الملكة تتخفّى في قصرها وتعطي الأوامر. لن تضيّع وقتها ومصالح الرعايا من أجل أن تداعب خدّ بشريّ بائس مثلي!!

ملكة أم ملك؟ بدا التّفكير سخيفا وانتهى عميقا. من يصدّق أنّ هذه الكائنات القذرة أعمق تحضّرا من جنسنا العجيب بأن جعلت لها ملكة بدلا عن ملك، وقوانين صارمة لا يخالفها أحد!!

"كائنات مسيّسة." قلت وأنا ألوّح بيميني لأبعد واحدة عن أرنبة أنفي الكبير..

أنزعج، أملّ، أضجر، ينتابني وهن، يتيبّس ظهري من الجلوس فأتساءل ما الفائدة؟

"تزعجك؟"

تقول صديقتي ذات الشعر الأحمر وتجلس إلى جانبي واضعة حقيبة يدها الصّغيرة على حجرها..

"صباح الخير." قلت منزلقا بنظراتي إلى الحجر..

"تعجبك؟"

قالت مبتسمة بإغراء ومشيرة إلى الحقيبة كبائع كسدت بضاعته..

"فاتنة!" قلت حادجا الحقيبة الجلديّة اللامعة، قبل أن تنزلق عينيّ الواسعتين إلى حجرها رامقا بشغف فخذها العاري..

رفيقتي حمراء الشعر، امرأة متوسّطة القائمة، مستديرة الوجه، حادّة الأنف، يضيء وجهها الأسمر كحبّة زيتون مغموسة في زيتها.. أمّا عيناها فخضراء كأرضنا. راجت أخبار

كثيرة وشائعات عن شغف أمين الحزب بها حتى هام حبّا، وصمّت آذاننا أخبار أخرى تقول إنّ هدى هي عشيقة أمين الحزب السريّة.. أنا لم ألاحظ شيئا وليس من هوايتي التفتيش خلف أسرار النّاس المربكة. كنت دائما مشغولا بنجاح الحزب، الحزب أهمّ من نجاح الوطن.. الوطن بالنسبة لي هو حضن دافئ يتّسع للجميع، وعليّ كفرد فيه أن أنال نصيبي من الكعكة الكبيرة.. نصيبي كان حلمي ونصيبي هو نيل منصب كبير في الدولة ولن يتحقّق ذلك إلّا بنجاح الحزب، إذن الحزب أهم من الوطن!!

"تأخّروا.." أضفت بعدما ابتسمت لي مجاملة.

"مكثت وحيدا طويلا؟!" سألتني.

"ليس تماما، لقد آنستني مملكة الذباب!!" قلت.

"ليس للذباب مملكة.." قالت صادمة إيّاي. أنا الذي ظننت أنّ للذباب مملكة، معتبرا إيّاه كائنا مسيّسا!

"أليس مثل النحل هو؟!" تساءلت مستغربا، فضحكت..

"لا، ليس مثل النحل.. دابّة فوضويّة قذرة، بعض فصائلها مزعجة وبعض فصائلها مؤذية.."

طفقت تتحدّث كعالمة بيولوجيا..

"ألا تُجمع على شيء أبدا؟" قاطعتها وقد ضجرتُ!!

"بلى.. تُجمع على التّسافد والعفن!!" قالت وطفقت تضحك، بينما رحت ألوّح بيدي مسكونا بالنّقمة والحقد وأنا أطرده..

×××××

فضيحة، يا لها من فضيحة.. يعتصرني الألم، الألم الدّاخلي.. أتقلّب في فراشي، أحكّ وجهي، أمطّط ساقي، أستشعر شدّا غريبا في عضلاتي، أضغط زرّ اللمبة المحمولة بجانبي، أسند ظهري إلى الحائط، أرتشف من شراب الأعشاب المهدّئ للأعصاب.. ينتابني ضجر، أفارق فراشي وأجول في فضاء شقّتي كمجنون خفيف الجنون.. يمرّ الوقت وأنا منزعج.. أشغّل التلفاز، ثمّ أحاول النوم على وقع

الكتابة وأهلها

ضوضائها.. رداءة البرامج مؤنسة لمهزوم مثلي. لطالما نمت على وقع ضوضاء رداءات التلفاز، تلك الرداءات عادة ما تهزم إحساسي العميق بالوحدة.. حينما أكون وحيدا كعادتي أستشعر تفرّدي نتيجة لتلك المسافة التي أتّخذها بعيدا عن المجتمع والناس.. يزعجني الإحساس بالتفرّد وأفتقد الانسياق في متاهة التفاصيل السخيفة ليومي، فآنس بما يلقيه إلى سمعي وبصري التلفاز، وحينها فقط يجتاحني الزهو والبهجة لدرجة الرقص على أنغام النشاز أحيانا كثيرة من فرط النشوة.. لكن هذه الليلة أنا حزين ومنكسر. ثمة إحباط يمنع تدفّق النشوة داخلي. فلم تفلح ضوضاء التلفاز في جعلي منتشيا ثم هادئا ثم مخدّرا يغلبني النّعاس..

غادرت الحشية التي أستلقي عليها في الصالون، أطفأت التلفاز وعدت أجول في بهو شقتي.. الضوضاء داخل رأسي لذلك بدا لي الصمت حولي مريحا..

"أيّها السادة الكرام أعضاء حزبنا المكافح ضدّ العنصريّة والعنهجيّة والبربريّة والظلاميّة والدكتاتوريّة، يؤسفنا إعلامكم بإلغاء الاجتماع كما كان مقرّرا له الانعقاد في هذا اليوم عند الساعة العاشرة، فقد طالت أيادي الظّلام أمين الحزب واختطفوه من داره بدعوى الفساد.. إنّ هيئة رفيعة المستوى من مناضلي الحزب ستنتقل إلى الدوائر الحكوميّة الضيّقة لإفشال مشاريع الظلام التي تحاك ضدّ حزبنا المقاوم.. عاش الحزب.. عاشت النضالات.. عاشت الديموقراطيّة.."

خطر ببالي خطاب رئيس ديوان حزبنا فازددت ضجرا.. ما معنى أن يورّط أمين الحزب في قضيّة فساد؟ يعني ذلك أنّه غير جدير بثقتي، وأنّه لن يوصلني إلى برّ النجاة.. لا يعنيني أن يكون فاسدا، بل يعنيني أن لا يتورّط.. كلّ من في الوطن فاسدون، أحزاب وصحف ومنظّمات وشركات بل حتّى الموظّفين الصّغار.. أنا عن نفسي مواطن فاسد أقبض الرشوة وأعطيها، أحابي أشخاصا أطمع في منفعتهم لي يوما وأزدري

أشخاصا لا يرجى منهم شيء أثناء معاملاتي الإداريّة. لكنّي لا أقع يوما لأحد فيكشفني.. تلك هي اللعبة التي تعلّمتها عن أساتذتي الكبار، تلك هي الفكرة التي عرفتها عن وطني منذ خلقت فيه، "كل وأطعم"، هذه هي الفكرة التي رُبّيت عليها وهي الفكرة التي أنا مدين لنجاحي بها. لكن أن يتورّط أمين حزبي الذي أطمع أن أرتفع من خلاله إلى سدّة المجد في قضيّة فساد فهو الضجر والغضب وانهيار البنيان وتهاوي الأحلام.. أهذا هو الحزب الكبير الذي اخترته لتحقيق أحلامي وأصير سيّدا وأغرف ما أستطيع بفعل نفوذي الجديد وعلاقاتي مع السادة الكبار؟ أفّ لي من وضيع! عليّ تغيير الخطّة والانطلاق نحو حزب جديد.. لا تهمّني الأفكار، لا أحفل كثيرا بالمبادئ، ولا بذلك الكلام المنمّق عن البرامج والاستراتيجيّات الاقتصادية، لا أهتمّ لصورة المجتمع وللوعي العام والرأي العام والقضايا الكبرى والنزاهة والشفافيّة، وهلمّا جرّا من ذلك الكلام الذي لا معنى له إلّا بالقدر الذي يهبني

منفعة ما.. كلّ تلك الشعارات ليست إلّا تسويقا وصورة مخادعة لننال السلطة والمكاسب والغنائم.. ماذا أصنع الآن؟ المنصب الكبير يضيع.. النفوذ يضيع.. الحزب يضيع.. أنا أضيع.. ويلي فلن أكون سيّدا!! هل حُكم عليّ أن أبقى وضيعا راضيا قانعا بالعمولات الصّغيرة!! كيف سأذلّ أعدائي؟ كيف سأصل إلى أهدافي؟

لا يهمّ، من الغد سأعرف كيف أصنع.. من الغد أودع استقالتي مكتب الضبط بإدارة الحزب المركزيّة وأنخرط في الوقت ذاته في حزب جديد.. ذلك سيكلّفني كثيرا، فعندها أخسر ولا شكّ ما توصّلت إليه من مكانة في حزبي القديم لكنّي سأعرف كيف أفتكّ مكاني من جديد في وقت وجيز.. إنّي أعرف الطريق جيّدا كما يعرف القطّ كيف يتسلّق حائطا أملسا، كما تتسلّق السحليّة جدار البئر اللولبيّ أعرف أنا كيف أسلك الطرق الملتوية للسياسة.. في وقت وجيز سأصبح مرشّح الحزب الجديد لانتخابات المجلس النيابيّ، وعندها

تفتح الحياة آفاقها أمامي من جديد!! هل سيجدون رجلا بمثل خبرتي السياسيّة؟ بمثل دهائي؟ بمثل انتهازيّتي واستعدادي لبيع كل شيء وأيّ شيء في سبيل حصولي على المنصب والنفوذ؟! بالطبع لا، فالحظ فقط هو من أخّر مسيرتي الوصوليّة السياسيّة المظفّرة.. يلزمني فقط خطة جيّدة، تبدأ باختياري للحزب الأقرب للنجاح.. ذلك ليس سهلا، فعليّ استقراء الواقع السياسيّ جيّدا، وعليّ أن أحيط علما بدقّة اللحظة التاريخيّة التي نحياها وما تستلزمه بالضّبط من كلام منمّق حول المبادئ والغايات، مع رسم الصدق والنزاهة على ملامح بريئة لوجه عفن.. عليّ أيضا أن أعرف كيف ألامس وجدان البسطاء السذّج من الشّعب.. هذا الشعب ساذج وطيّب يسهل خداعه. يكفي أن أوهمه بصلاحي وأعده بلقمة العيش حتى يصير زبدة في يدي، لا داعي لتنميق كلامي حول التنمية والمشاريع الكبرى وإرهاق عقلي ودفع مالِ عزيز لضبط استراتيجيات التنمية والبحوث المطوّلة حول الاقتصاد..

ذلك يعجب المثقفين والمتعلّمين جدّا وأصحاب الضّمير، وما أقلّهم في بلادنا لحسن حظّي!! الشعب الحقيقي، شعب الأعماق يحبّ من يخدعه، من يرسم الورع على وجهه ويحدّثه عن الله دون إسراف.. عند ذلك سيمضون زرافات إلى الاقتراع وينظرون لي كنبيّ أخير مرسل، أو كبطل قوميّ تأخّر وقته..

مضيت إلى فراشي منتشيا بقراري وبخطّتي الجديدة في اللّعب، استشعرت الدفء وأغمضت عينيّ، تراءت لي صورتي في المجلس أمثّل حزبا لا أعرفه، أدافع عن أفكار لا أفهمها كثيرا ولا أحبّها أيضا، غير أنّ صورتي في الغد وجلستي تملأ مكتبي الخاص كانت تبعث داخلي منسوب الفرح والتوق الشّديد.. قبل أن يصرعني النوم أتساءل؛ لماذا يفتّش الناس عن الله في وجهي وأقوالي؟ هل يطمعون أن يقبلهم الربّ لأجل صلاحي؟!

×××××

لطالما تساءلت أحيانا كثيرة عمّا تشغله الرّفيقة هدى في الحزب من مهام؟ كنت دائما أراها تغدو وتروح في تمام أناقتها، وكأنّه لا شغل لها غير الظّهور أنيقة وفي أبهى صورة.. ربّما كانت صورة الحزب المشرقة. صورة تسويقيّة مزوّقة بعناية للتسويق لحزبنا في عيون الصحافة والمنظمات والغرباء.. إنّها لا تفعل شيئا أبدا سوى الظهور مبتسمة بإغراء، مطليّة الوجه بالمساحيق، عارية الركبتين أو الذراعين، تنتقل كفراشة من مكان إلى مكان ومن ركن إلى ركن أثناء الاجتماعات الموسّعة للحزب.. وكنت أراها من حين لآخر تعطي أوامر خفيّة لموزعي المشروبات قبل أن تعود لهدوئها ووقفتها وابتسامتها المغرية.. تلك المشروبات التي عادة ما أنقع فيها وأشفط منها كؤوسا عديدة كثعبان مهياف.. تلك عادة تأكلني، أنظر لكل شيء ترسله لي الحياة كغنيمة وكفرصة وجب استغلالها.. ثمّة جوع يسكن قلبي لا يُشبع أبدا من كلّ شيء!!

"ربّما كانت الرفيقة هدى سكرتيرة حزبنا السريّة.." أقول لنفسي في كل مرّة يجتاحني فيها السؤال اللغز، محاولا إقناع نفسي بأيّ فكرة تخطر لي رغبة في الخلاص من السؤال. أنا أكره الأسئلة والألغاز والأسرار. وربّما كانت تلك نقطة ضعفي في السياسة، فقد تعلّمت أخيرا أنّ أهمّ ما في السياسة كما الفلسفة هي الأسئلة والألغاز والأسرار على وجه الخصوص.. فبالأسرار تُعرف خبايا الأمور وكيف تُدار الدواليب الخفيّة، وكيف يمكنك أيضا أن تقفز إلى ما تريد.. تخيّلوا لو كان معي سرّا أضغط عبره على رجل مرموق القدر من رجال السياسة أو الأعمال؟ أليس مفيدا لي؟ ربّما قفزت عبره إلى ما أريد!! المقايضة، المنصب مقابل الإخفاء، أليست فكرة؟!

غير أنّي لم أفكّر بذلك أبدا، أولا لأن الحياة لحسن الحظ لم تهبني لا سرّا أعرفه ولا موهبة في كشف الأسرار ولا رغبة في التفتيش وراءها.. وثانيا لأنّي اكتشفت أنّ المقايضة بالأسرار ولعبة الإجهار والإخفاء الصحفيّة لعبة خطيرة، تشبه

تورّط مشعوذ هاوٍ في استحضار مارد من الجنّ!! هذه لعبة الكبار بينما ما أزال أنا صغيرا، ذليلا، وحقيرا.. لذلك كنت مركّزا بشدّة على أهدافي، لا أهتمّ للأسرار ولا أقيم لها وزنا ولا أتتبّعها أيضا..

في الوقت الذي اجتاحني فيه السؤال المتكرّر الحارق عن مهام الرفيقة هدى، فاحت رائحة الشائعات اللذيذة عن علاقتها بالأمين العام كعشيقة سريّة، لذيذة وطريّة.. وذات اجتماع عام فاض تفكيري الخفيّ على لساني فجأة فسألت رفيقا لي يجلس بجانبي كتفا بكتف، ملت برأسي نحوه ووشوشت في أذنه وعيناي لا تنزلق بعيدا عن هدى.

"ماذا تشغل الرفيقة هدى في حزبنا بالضّبط؟"

"الرفيقة هدى هي قلب الحزب النابض دما وحبّا!!" قال بلهجة جادّة تميل إلى السخرية.

ضحكت ساعتها وعاهدت نفسي ألّا أسأل ذاك السؤال مجدّدا. من يدري أيّ سرّ وأيّ ورطة أنفتح عليها فجأة!!

"رفيقي العزيز مرحبا، هل أنت في عشّك؟" قالت وضحكت. إنّه اتصال من هدى، مفاجئ وغريب هذا المساء..

"نعم، أنا في البيت.." قلت متلعثما تائه الأفكار، ولا أعرف كيف أردّ.

"حسنا، ألن تفتح لي الباب وتستقبلني؟!" قالت بلهجة جدّ تميل إلى الإغراء..

"أنا أقيم وحدي.." قلت بصوت مرتعش.

"أفهم أنّك لا تريد استقبالي؟" قالت بلهجة لا أجيد وصفها، لهجة تجعل قلبك يذوب تعاطفا، وعقلك يهوي وراء الشعور بالذّنب!!

"لا.. على العكس.. مرحبا!!" قلت دون أن أشعر، كأنّي منوّم مغناطيسيّا أكرّر ما يُملى عليّ!!

"طيّب، أنا في انتظارك لتفتح الباب، لا تتركني أنتظر طويلا.." قالت بلهجة أثارت فيّ شهامة دفينة لم أعرفها

فيّ منذ مدّة طويلة.. لكن لا أدري لماذا لا تتحرّك داخلي تلك الشّهامة إلّا حين تُذيب قلبي امرأة؟!

لم أردّ، تقدّمت سريعا نحو الباب لأفتحه، وجال برأسي تساؤل سريع، كيف عرفت عنوان بيتي واهتدت له دون أن تستعين بي في بعض التفاصيل؟ ثم ما سرّ هذه الزيارة المفاجأة؟ وماذا يقف وراء جرأتها الغريبة؟ تزور رجلا وحيدا مثلي بينما تتهيّأ الشمس للغروب؟!

"أهلا.. كيف حالك؟" عاجلتني بالقول حينما فتحت الباب، تجاوزتني متقدّمة بخطى واثقة نحو المطبخ. على كتفها حقيبة صغيرة، وبيدها مشتريات تخفيها أكياس سوداء وضعتها على ركح المطبخ.. ألقت عينيها في أركان الشّقّة، تراءى لها كرسيّ في زاوية ما لإحدى الغرف..

"وحيد إذن؟ تعيش وحيدا كملك؟ تصنع كلّ شيء بمفردك وتتأمّل الغروب بينما تنقع في قهوة باردة.." طفقت تثرثر بينما تقدّمت ناحية الكرسيّ المهمل، جلبته إلى المطبخ

وجلست.. سحرتني في لحظة مفاتنها التي أذابت قلبي يوما بعد يوم، واجتماعٍ بعد اجتماعٍ منذ انخراطي في الحزب.. هذه اللحظة أكثر حميميّة وأجلُّ إغراءً.. سحبني جسدها الطازج داخل أفيون سحره فسهوت تائها وذاهلا عن ثرثرتها.. جسد حرّ جامح مضغوط في لباس قصير، هدى وطن يتجسّد، نصفه حريّة ونصفه الثاني مضغوط محكوم تُخشى ثورته فيُلفّ في تنورة قصيرة ضيّقة، وقميص مفتوح من ناحية الصّدر حيث يضيء جانب من مدينتين مزدهرتين مزهرتين تغريانك بالثورة الكامنة فيك فلا تستطيع كبتها رغم ضغط المدينتين وكبح جماح طاقتهما على التمرّد الذي يوشك أن يكسر طوق الحصار حوله، أمّا الذراعان فمكشوفان لامعان كشواطئ مدينتين ساحليتين!! ما سرّ جرأة هدى وإحجامها عن اللباقة؟ وفيم تكشف عن ذراعيها وتعرّي ركبتيها في بيتي بينما تعوّدت اعتماد سلاح واحد في اجتماعات الحزب؟!

تساءلت سريعا داخلي وقد عدت عن تيهي وغيبوبتي.

"آنسة هدى، لماذا لا نجلس بغرفة الضيوف؟ الجلوس هناك مريح أكثر.." قلت محاولا إصلاح ما أفسدته بتصرّفها العفويّ..

"مريح لي أم لك؟" سألت سؤالا لا تنتظر إجابته بقدر ما رمت به إلى تشتيت ذهني الممزّق.

"لست غريبة ولا ضيفة، اجلس هنا لن أطيل عليك، ألا يوجد كرسيّ آخر؟" أضافت بثقة واسعة، وكأنّ البيت بيتها.. تهت ولم تنتظر هي إجابتي، بل طفقت تبحث في الشقة عن كرسيّ آخر..

"ليس بشقتي عدا كرسيّ واحد!" صحت فيها ببعض غضب وبعض سخرية وبعض حياء أيضا..

عادت بصندوق معدنيّ مستطيل الشكل ومكعّب، هو معي منذ سنوات طويلة ألقيه بين الأشياء المهملة ولا أقيم له أي وزن.. لا أدري لماذا احتفظت به كلّ ذلك الوقت، فهو عديم النّفع فعلا!!

"يشبه صندوق الانتخابات!!" قالت وضحكت فظهرت أسنانها وأشرق وجهها كما تُشرق الشمس الدافئة في وطني.. ثم قلبت الكرسيّ جاعلة قاعدته المغلقة إلى الأعلى..

"هو ذا كرسيّ يا عديم الحيلة.." أضافت مصوّبة نحوي نظرة إغراء مخمليّة نعسة. كم من الفنون تتقن هدى؟

ابتسمت وانطلقت نحو أكياس مشترياتها تفتحها. أخرجت أشياء مذهلة لم أتوقّعها، دجاجة مشويّة وزجاجة نبيذ وفاكه جافّة.. أخرجتها كمفاجئات أعياد الميلاد السنويّة ووضعتها على الطاولة..

"لم تتناول وجبة عشائك كما يظهر؟ حياة الوحدة ممتعة ومؤسفة، حيث أنت حرّ ومقيّد بحاجاتك التي لا تتقن صنعها منفردا!!" قالت وجلست على الصندوق المعدنيّ، وألقت ساقا فوق أخرى فذاب قلبي..

"اجلس.. فيم تيهك؟ هل أنت ضيف؟" قالت وطفقت تأكل.

"آنسة هدى.. هذا لا يجوز، أنت ضيفتي، اجلسي على الكرسيّ رجاءً مادمت تحجمين عن الصالون." صدر مني احتجاج أخيرا..

"اجلس." قالت بلهجة آمرة حادّة، حادجة إيّاي بنظرة واثقة، فجلست..

لم تتكلّم لبرهة من الوقت، كانت مشغولة بالأكل، ولمّا لاحظت انشغالي بالتفكير عن الأكل لم تعترض ولم تدعوني لأشاركها الطعام، بل طفقت تضع قطع الدّجاج بيدها في فمي..

"ما ألذّ هذا الدجاج!" قلت وأنا أمضغ قطعا تداخلت في فمي حتى صنعت كرة لحم مشويّ.

"من يد هدى يكون كل شيء لذيذ.." قالت وابتسمت بإغراء، وحشت قطعة لحم أخرى في فمي وقد مالت نحوي فبدا صدرها عاريا كجارية في حضرة ملك.. تراجعت،

تناولت زجاجة النبيذ وملأت قدحين، ناولتني قدحا فارتبكت..

"لست متعوّدا على الشرب.." قلت بتلعثم مفضوح وقد بدأت داخلي أشياء تتحرّك.

"لماذا؟ أتصلّي؟" قالت ساخرة وقرّبت القدح من شفتيّ، وقد مالت كما مالت..

تهت منها فشربت بلا رغبة، ثم تَراجعتْ، شربت قدحها، تناولت قدحي وشربت أيضا.. ملأت القدحين ثانية، شربنا ثانية..

"استقلت من الحزب هذا الصباح، صحيح؟" قالت في هدوء.

"نعم، فعلت." قلت متلعثما..

"إذن فقد بعت الرفاق عند أول اختبار، عند أول منعطف.. أليس في ساعات الشدّة تُعرف الرّجال؟" قالت بلهجة عتاب..

"حسنا آنسة هدى.." قلت.

"هدى فقط.." قاطعتني.

"حسنا هدى، تلك اللحظة كانت مزلزلة لي.. كانت مفاجئة ومربكة.. الأمين فاسد؟ لم أدر كيف أتصرّف، أردت فقط الخلاص.. تعرفين أنّي انخرطت في الحزب من أجل المبادئ!!" قلت مؤديا دورا أحبّه محاولا إنقاذ نفسي من الحرج..

"وهل ترانا حدنا عن المبادئ؟ الأمين مظلوم، ألم ترى شيئا من نضالاته وأفعاله؟ ألم ترى بعينك مثلا تبرعاته؟ والآن قلّي هل يتبرّع الفاسدون بأموالهم؟ هل يتحسّسون آلام الفقراء مثل الأمين؟ ويستشعرون العذابات مثل الرفيق الأمين فتنفطر قلوبهم مثلما ينفطر قلبه؟" طفقت تتحدّث كخطيبة فكنت أومئ برأسي وأشرب..

"وفي اللحظة التي يحتاج فيها الأمين دعمنا، نتخلّى عنه؟ نتركه وحده في وجه المؤامرة والشرّ مثلما فعلت أنت؟ إنّها

خطّة محكمة لتصفية حزبنا المنحاز للفقراء والمهمّشين!!"
أضافت كمن يخطب.

بغضّ النظر عن الاقتناع، فقد استشعرت ارتباكا وحرجا عظيما في حضرتها. كم بدا ما فعلته مخجلا.. تصاغرت أمامها كأرنب وطأطأت رأسي.. فتحت حقيبتها، أخرجت هاتفها، نقرت على سطحه، بدا على شاشته خبر وصورة وتعليقات في الأسفل..

"أنظر إلى كمّ التعليقات المتعاطفة." قالت زارعة الهاتف عريض الشاشة في وجهي.

"مثل الذباب!!" قلت بعفويّة حين ظهرت لي التعليقات الكثيرة.

"نجاحنا يزعجهم كما ترى، صدقني.." أضافت بلهجة كهنوتيّة يتشاركها الشيطان والملاك، فيها من الانتصار والاستجداء والضعف!!

أومأت برأسي موافقا دون شعور.

الكتابة وأهلها

"أليست هذه استقالتك؟" قالت وهي تسحب ورقتي من حقيبتها الصغيرة، ثم تفتحها في وجهي.

"نعم." قلت بارتباك وتناولتها. كيف يا ترى حصلت عليها؟ وماذا تشغل في الحزب بالضبط؟ تساءلت داخلي.

"مزّقها إن كنت مؤمنا.." أضافت، وقد قامت إلى أكياس المشتريات، أمازلت تخبّئ شيئا آخر؟

ظللت تائها وأنا أتأمّل الورقة لا أدري كيف أصنع.. لم أكن متردّدا في العودة عن قرار استقالتي، بل كنت تائها وبعيدا.. رأسي يدور والذباب يطنّ حوله.. أستشعر امتلاءً كالضوضاء لا أفهمه!!

"مزّقها إن كنت تحبّني!!" قالت فزاد ارتباكي وأقبلت بكعكة مرطبات وضعتها في مجلسنا.

"غدا يعود الأمين إلينا، وهذه الكعكة احتفال قبل الاحتفال، ونصيبك قبل نصيب الجميع!!" أضافت بلهجة إغراء، مصوّبة نحو عينيّ نظرة غنج ودلال..

منوّم بسحر تلك النظرة، طويت الورقة ومزّقتها، وعيناي تنشدّ إلى عينيها. من ذا الذي لا يتوه خلف نظرات هدى نحوه؟!

ابتسمت لمّا اطمأنّت لتمزيقي ورقة الاستقالة.. طفقت تقسم الكعكة الشهيّة إلى قطع صغيرة، تراءت لي لذيذة وأنا أتناولها قطعة قطعة، أمضغ على مهل وأستشعر حلاوة طعمها بلساني، أمتصّ عسلها الحلو الفائض على جنباتها، وألحس صبغ الشوكولاطة اللامع على سطحها.. جائع أنا ونهم بحجم إغرائها واليد المشدودة إلى السكين تقطع كعكتي، بينما تقطّع نار الشوق إلى لذّتها قلبي..

"هدى، ما أجملك.." قلت طامعا في أن تبيت بين أحضاني، وقد هزّني سحرها..

"انتهينا.." قالت وألقت السكين قريبا من الكعكة. ثم ناولتني قطعة يضيء اللون البنيّ فوقها، ويكتنز وسطها بياض شهيّ ثريّ حلو، فطفقت أقضم متلذّذا..

"تعجبك؟" قالت وابتسمت بإغراء.

"لذيذة كصاحبتها.." قلت ونظراتي تسبح في تفاصيلها..

"هنيئا.." قالت بعد أن ضحكت.

"تأخّر الوقت.. عليّ الذهاب." أضافت، وتناولت حقيبة ظهرها الصغيرة.

"لماذا لا تمضين الليلة معي؟ على الأقلّ نتشارك أكل الكعكة!" قلت في محاولة أخيرة يائسة.

"لا أستطيع.. أنا لا أحبّ أكل الكعك، أنا أعدّه فقط!!" قالت وهي تهوي نحوي، تميل بجذعها نحو وجهي.

"أرجوك.." قلت وقد غلبت عليّ الرغبة في استبقائها، واضطرمت نار داخلي لا تطفئها غير هدى.

"أخشى عليك الليل وصنوف المكاره.." أضفت مصلحا خطئي، مزيّنا وحشيّتي بلبوس شهامة يروقني..

"لا أستطيع.. غدا يوم عظيم.. كل الشعب سيبيت في حضن حزبنا، وعلى عاتقي أشياء أرتّبها من منزلي، لأُنْجِحَ الغد.." قالت منقلبة إلى الجدّ. هذا الشعب لا يتركني أهنأ أبدا.. كل الشعب يبيت في أحضان الحزب؟ وأحضاني أنا يا هدى من يبيت فيها؟! من يطفئ نارها أو يدفئ بردها؟!

"إلى الغد يا رفيقي.." أضافت في وجهي المهزوم، وطبعت على خدّي قبلة هي كلّ نصيبي.. تهادت في الرّواق يذيب قلبي سحر مفاتنها، بينما كنت تائها وراء هزيمتي، فتحت الباب، مال وجهها نحوي، ابتسمت، لوّحت بأصابعها مودّعة، قبل أن تغمز لي وتغادر، ثم صدرت عن الباب قرقعة الجذب..

تراني مزّقت بيدي ورقتي الرّابحة قبل أن أستثمرها لبعض الوقت؟

-انتهت ٢٠٢٠/١١/٢٩، الساعة الثامنة والنصف ليلا بتوقيت ج

قصبة في الريح

أول ما حدث ذلك هزتني رعدة غريبة. بدوت كقصبة في الريح.. ما أجمل هذه الجملة، لكني شيئا فشيئا ومع الوقت تعوّدت على الأمر.. في البدء نظرت إلى الموضوع من زاوية ما، بتصوّر ما، وقد تقول إنّك يا سيدي في تلك اللحظة غير قادر على التصوّر وعلى التفكير وعلى تعقّل الأشياء.. ومعك حقّ. في تلك اللحظات تضيع منك الأشياء.. تختفي من حولك كسراب أو هامات. لكن أنت تدري أنّي عنيت الزاوية الوحيدة والتصور الوحيد الذي نكون قادرين على إدراكه في لحظات ضياعنا. نعم إنه ذلك الانسحاب، ذلك الخوف، ذلك التفكير في النجاة أو التسليم بالنهاية الموجعة. لكن لحظة، فلا وقت للخوف فعلا. لقد كنت أول مرة منسحبا وراء الحركات والاهتزازات، أهتزّ كمن يتعرّض لصعقة كهربائيّة مطوّلة. أيقنت بالنهاية ولم أطمع أبدا بالنجاة.

ظهورها المفاجئ أرعبني، أفقدني إحساسي بذاتي، بالضبط قصبة في الريح كما يقول الأدباء يا لها من جملة..

عندما حدث هذا لأول مرة تمكّن بي الرعب، أنا لم أكن أنا!! صدقني.. يحدث للإنسان أن لا يكون ذاته في لحظات لا يملكها.. تخيّل معي، لقد كنت وحدي، وحدي تماما، عاريا من كل شيء، من كلّ خوف، من كلّ التزام، من كل فكرة، من كلّ عمل، من كلّ توقّع. وأقول لك إيّاك أن لا تتوقع، حين تكون عاريا من كلّ توقّع رجاءً توقّع.. لمصلحتك فربّما خفف ذلك من المفاجأة ومن وقع الصدمة.. تصور أن تظهر لي وأنا وحدي؟ ذلك ما حدث بالفعل على كلّ حال.. نعم صدّق. الأبواب موصدة كما النوافذ، التلفاز مطفيّ، دولاب ملابسي مغلق، هاتفي مفصول عن الشبكة ومع ذلك ظهرت.. بدت كنجمة بعيدة مضيئة ولامعة وحارّة، ربّما كانت تحترق.. لا أدري غير أنها أخافتني جدّا على كلّ حال.

ليس الخوف ما يزعجني الآن فقد ذهب عنّي مع التعوّد على ظهورها وتعوّدي على رؤيتها. العادة تكسر قداسة الأشياء وبكارة الإحساس بها.. ما يزعجني هو إدمانها، لقد أدمنتها يا ولدي أدمنتها كما تدمن أنت أكل الحلوى. وبما أني أدمنتها فعليّ إذن إشباع رغبتي، كي لا يعذّبني الفقد والغياب. ذلك هو الإدمان يا بنيّ، يسحبنا من حياتنا ومن صفائنا لصالح دوامة من الأشياء والأفعال غير النافعة. تلك التي تلحّ علينا في كلّ وقت لنضيع وراءها.. لكن ماذا لو كان الإدمان استثنائيّا وغير مألوف وغير مضرّ وغير نافع؟! كذلك كنت أنا، هل يمكنك تصوّر ذلك؟

لم أرها منذ ثلاثة أيّام.. أستشعر إحساسا بالفقد مرّ، وخمولا في عظامي وأوقاتي يشبه السكينة.. ثمة فراغ موجع لا أستطيع وصفه لك، لكن أؤكّد لك أنّي أستشعر غيابها كما لو كانت شيئا من لحم ودم، كما لو كانت امرأة أو قطّة أو حمامة!! وها أنا ذا وحيد من جديد أعيش دون صورتها ودون

حركتها ودون غموضها أيضا.. ربّما اختفت بفعل التّعاويذ أو بفضل صلواتي في خلواتي وربّما بفضل الأدوية التي تناولتها تلك الأدوية التي تشبه المخدّرات، أو ربّما لأنّها يئست من إمكان تحقّق غايتها بعد أن نجحت في كبح ميولي الانتحاريّة. فبفضل الأدوية وبفضل تفرّغي للصلاة، وبسبب اقتناعي بكلامي معلّمي الروحي عن الحياة والحبّ، وربّما بسبب حبّي لها وإدمانها أيضا نجحت في تجديد الرغبة داخلي، رغبتي في البقاء.. إنّها غريزة!

هل جرّبت أن تعيش داخل عالم من الصور والخيالات؟ إنّه عالم حقيقيّ من لحم ودم.. عالم يجري عليك فيه ما يجري عليك في الحياة الطبيعيّة، أعني الواقع والحياة والأشياء النابضة حيويّة وطاقة. لكن فجأة يختفي كلّ شيء من حولك ليقول أحدهم لك بكلّ أسف إنّ ما تراه لم يكن الحقيقة!! لم يكن الحقيقة؟ كنت أحلم إذن؟ أم كنت أعيش داخل عالم من وهم؟ ما هو الوهم؟ أليس هو ما نضفيه من خيالاتنا على الحقيقة؟ فلماذا لا يكون هذا العالم كلّه وهم تبتكره عقولنا ويوشك أن ينقضّ.. يوشك أن ينهدم على رؤوسنا.. ما الفرق؟

الكتابة وأهلها

ففي الحالين نحن نحيا ونتوهم، وندمن وهمنا!! فلماذا إذن يحرقون الصور داخل رأسي ليوقظوني من الوهم؟ لقد أدمنت عالمي، أدمنت صوري، أدمنت جنوني وخيالاتي، أدمنت حقائقي.. أعني ما أراه حقيقيّا، فلِمَ لم يتركوه لي كما تركوا للناس عوالمهم وأوهامهم.."

كان هذا هذيانه الأخير قبل أن يتلقّى ضربة على رأسه..

٢٠٢١/٠١/٢٩

الساعة الثانية ليلا.

حيرة رأسمالي طيّب

لا أدري في أيّ وقت بالضبط ظهرت معي تلك المشكلة، أو لنقل بالأحرى متى اختفت. فلقد كنت على الدوام قادرا على البكاء، وفجأة اختفت تلك القدرة.. لست أدري متى، فهي ليست من الأشياء التي نلاحظها سريعا، كما أنّها كما هو معلوم فعل لا شعوريّ ينقذنا في مواقفنا الحرجة فيظهرنا متعاطفين ومتضامنين وإنسانيين مع أنفسنا ومع الآخرين وهذا ما يجذب نحونا كثيرا من الحبّ والتسامح والمصالحة..

أعتقد أنّي كنت قادرا في السابق على البكاء وعلى التأثّر، وأذكر كما يذكر آخرون أنّي ولحسن الحظ كنت حسّاسا لدرجة تنهمر معها دموعي لمجرّد موقف بسيط موجع لغيري أو عند تعرّضه لإهانة أكون شاهدا على وقوعها، بل إنّي كنت شديد التأثّر لدرجة البكاء بمجرّد سماعي لخبر وقوع إهانة ما لأحدهم. وهو ما جعلني كما يصفني الآخرون وخاصة خدّام والدي الذين صاروا خدّامي إنسانا حسّاسا بل مرهف

الحساسيّة كما يصفني كبير خدّام أبي.. ويا لطرب أذني وعقلي عند سماعي لهذا الوصف الرومانسي مما جعلني بعدما زهوت طويلا أعيّنه المادح الرسمي لحضرتي والمرافق الشخصيّ لسعادتي مريحا إياه من أعباء الخدمة الثقيلة وواهبا له ما يساوي عشر أجرته السابقة إضافة لأجرته إكراما مني لإخلاصه ولباقته، فأكرم به من خادم فطن..

عند وفاة والدي الذي أحبّه ظهرت مشكلتي.. كان قلبي حزينا لكن دون دمع. لم تنهمر من عيني ولا دمعة واحدة.. هزّني الحرج من نظرات الناس حولي، بدوت في نظرهم بلا إحساس، بل لمحت في عيونهم مكرا واتّهاما لي بالراحة لموته، فبموته تؤول لي ثرواته العظيمة وتصبح تحت تصرّفي.. إنّ هذا لحقيقي وإنه لمسرّ ومبهج أن تصبح لي السيادة الكاملة، وتغدو كلّ تلك الأموال والممتلكات لي وحدي، لكن أبدا لم يكن ذلك سببا في انحباس الدّمع عنّي فقد

كنت حزينا لرحيل والدي العطوف عنّي، حزين بالفعل كثمرة ماتت شجرتها..

عندما يغزوني القلق ويعنّ لي أن أتحدّث مع الخدم والعمّال عن أحوالهم، يفيض أغلبهم حزنا وبكاءً ووجعا وثرثرة كصنبور مياه.. يروون لي أشياء غريبة ظننت أنّي لن أراها إلا على شاشات التلفاز أحيانا. أعرف أنّ الفقر موجود، لكن لم أتخيّل تلك الصورة التي يصوّرونه بها.. حدّثني عامل بمصنع والدي، أعني مصنعي بحكم أني وريثه الآن، حدّثني عن معاناته اليوميّة من انسداد البالوعة في عمارة مزدحمة حيث لا يتسنّى له أن يقضي حاجته مثلنا فهو على حدّ زعمه يعيش في الضيق ويلجأ لحمّام مشترك.. إنّه يزعم تكرّر هذه المأساة كلّ يوم. أنا صراحة لا أستطيع تخيّل ذلك أبدا.. وحدث ذات مرة أن جاءني عامل بمصنعي حزينا كئيبا لا تكاد تجفّ دموعه حتى تنهمر من جديد. هدّأته، حدثته بأنّ الحياة جميلة، الأحزان خلال مسارها الطويل قليلة قياسا لساعات

فرحها وبهجتها التي نحياها بحب بل يجب أن نحياها بحب. فالحياة منتهى اللذة.. الواقع أني تكلمت كحكيم لدرجة أعجبت معها بنفسي وبحكمتي.. ربّما كنت حكيما رغم أنّي لم أدرس يوما شيئا عن الحكمة ولم أعرها أبدا اهتمامي، وفيم ينفع ذلك؟

حين أذنت لعاملي بالكلامي فضلا مني وتواضعا وتكرّما حدّثني حكاية غريبة لا أصدّقها إلى الآن. فقد ذكر وربما ظنني أبلها تنطلي عليه الحيل سريعا، أنّ أمّه التي أنجبته فارقت الحياة لرداءة الخدمة داخل المستشفى العموميّ، ولأنّها أيضا لم يتسنّى له إجراء عمليّة جراحيّة تحتاجها ولا نجاة لها دون إجرائها. وزعم عاملي أنّه لم يقدر على نفقات العملية الدقيقة لأنّه فقير معدم، وهو ما كان سببا في وفاتها..

هزّني الموقف، حطّم كبريائي، أذهلني، وأذهلتني معه جرأة عاملي. كيف يطعن شرفي هكذا؟ ألم تكفه أجرته لإجراء عملية جراحيّة لوالدته التي أنجبته!! هل يريد أن

يخبرني بطريقة ما أنّي بخيل؟ ثم كيف يريدني أن أصدّق أنّ المستشفى العمومي رديء الخدمة؟! فعندما زرت والدي في المصحة وكان وقتها في آخر أيامه رأيت بعيني تفاني الأطباء والممرضين، رأيت بأم عيني أخلاقهم ورفعتهم وابتساماتهم العريضة التي لا تفارق وجههم.. كما عرفت أنّهم حريصين جدّا على حياة المريض أكثر من المريض ذاته، فما بالك بالمستشفى العموميّ الذي تنفق عليه الدولة رسميّا وشخصيّا.. الذي أعرفه أنّ الدولة أعتى وأرقى وأثرى من الخواص فكيف إذن تقولون لي إنّ الخاص أرقى خدمة من العام؟ ألا تستشعر الدولة جرحا لكرامتها المهدورة؟ أما عن المصحة فكانت مشابهة لفندق فاخر الخدمة، فما بالك بالمستشفى العمومي؟

تصنّعت التعاطف والتصديق في وجه عامل مصنعي لكن دون دمع.. لم أعد أجد دموعا في عيني حقيقة، غير أنّي قلت:" رحمها الله، لكل أجل كتاب، الفقراء يدخلون

الجنة.." وضعت في يده ورقة من فئة العشرين فشكرني وغادرته مزهوّا بصنيعي.. وبمناسبة الحديث عن الله فإني لا أدري شيئا عن سر تلك الموهبة التي أجدها تسري على لساني كلّما احتجتها.. كلما احتجت أن أتكلم عن الله وجدت لساني منطلقا كرجل دين حقيقي أو كانسان يسلك طريق الله، غير أنّي لم أكن يوما كذلك.. صحيح أنّي أشعر بوجود الربّ معي دائما، وأستشعر دعمه لخطواتي غير أني لم أسلك يوما طريقه ولم يعلمني أحد كيف أسلك طريقه.. ومع ذلك أجدني ماهرا في الحديث عنه كلما احتجت لذلك، والذي يدهشني هو سرعة تصديق هؤلاء البسطاء لي بل وأيضا سرعة تأثّرهم لدرجة البكاء أحيانا كثيرة فيما أكون أنا بلا أدنى قدرة على استدرار الدمع..

ثمة شيء لم أستطع فهمه، وهو كيف يقدر المرء على وهب حياته للآخرين.. فأنا أسمع عن أصدقائي البعيدين ممن يشبهونني، أسمع أنّهم يهبون كلّ حياتهم وثرواتهم من

أجل جماعات يسمونهم الفقراء واليتامى والمساكين وعابري السبيل واللاجئين ضحايا الحروب، "إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا." ألم أقلكم أني متحدّث جيّد عن الله، غير أني لا أفهم ذلك ولا أرى نفسي فاعله يوما..

الذي يثير حيرتي أكثر ويزعجني بشدّة، هو تيه ذاك الشباب.. إنّه يهب حياته للشيطان وللجحيم.. يثيرون بلبلة هنا وهناك، يصنعون الفوضى، يحرقون العجلات، وأخيرا يحطّمون ممتلكاتنا ويسرقون، ماذا يسرقون؟ لا شيء سوى اللّمم، بعض الأشياء المعلبة الصالحة للأكل وبعض علب التبغ الصالحة للحرق.. إنهم مجانين يحرقون أوقاتهم الجميلة ويمضغون أحلامهم.. السارق المحترف يسرق ما يكفي أحفاد أحفاده، يسرق ما يجعل منه سيّدا مثلي عظيما وصاحب جاه وخدم وحشم.. عندها يخرص الشرفاء في حضرتك ويعوضون خسارتك ويكونون عبيدا لك، أنا أدري مثلا أن الدولة حماها الرب لنا عوضت خسارة أصحابي حين تعرضوا للسرقة في

الأحداث الأخيرة المريبة بل أعرف من تخلص من كلّ سلعه القديمة تماشيا مع الأحداث كي يتسنى له الفوز بتعويض.. ما أجمل أن تعوضنا الدولة عن شيء لم نخسره، وما أحلى تعاطف أهلنا حين يبكون لأجلنا ويقولون مساكين مساكين أرزاقهم تعرضت للعب واللهو من طرف مجانين.. ومع ذلك لا أفهم فيم يدفع أولئك الصغار حياتهم من أجل اللهو؟ ألم يكن الأجدر بهم أن يمضوا أوقاتهم الثمينة تلك على شاطئ البحر أو في نزل فاخر أو في عمل ينفع كالرقص الظريف مع وجه أنثويّ غضّ طريّ لطيف..

وجه أنثويّ لطيف؟ آه! ربما ذلك هو السرّ الذي يحرمني من البكاء تلك النعمة التي ينعم بها الفقراء دوني.. الحبّ، ألم يقل غاليغولا لو فقط نكتفي بالحبّ، الحب يصنع ضعفنا، يصنع حرماننا، يهبنا نعمة الجوع والعطش مجدّدا تلك النعمة التي حُرمناها إلى الأبد..

ليلة الخميس ٢٠٢١/٠٢/١١، نحو الساعة الواحدة ليلا.

الكتابة وأهلها

استفزاز

تلك الأحداث تستفزّني لكن عليّ أن أكون هادئا، محافظا على هدوئي أكثر مما ينبغي وأطول نفسا ممّا أستطيع.. تلك هي وصيّة السيّد "ه" لي، ولنقل إنّها نصيحة غالية وأمر عليّ طاعته.. إنّ السيّد ه خبير بحالي منذ أن صرت منه، وهو الأدرى بحكم خبرته وعمله بما ينفعني.. لكني مع إيماني الشديد واعتقادي الراسخ فيه، لم أستطع أن أحقّق طلبه، فتلك الأحداث تستفزّني، تستهلكني، تذيب الجليد الذي عليّ أن أتحلّى به فتحيل دمي وسوائلي الداخلية إلى مياه وسخة شديدة الغليان تنسف ذلك الهدوء.. تلك أشياء أقوى من صبري ومن تحمّلي..

كلما تفرّست في الأشياء حولي رأيته، يرتسم مسخا مخيفا وقذرا، وفي لحظات استمالتي والسخرية مني ينقلب جميلا ونقيّا.. يتلوّن في لبوس العفّة والبهاء، ويختال أمامي كطاووس.. أحيانا أضحك من بلاهته، وأحيانا أخرى يصيبني

الرعب قبل أن أتبع خطواته كأبله.. إنّه ليس مجرّد أبله عابث لا يدري ما يصنع، إنّه أذكى الأشياء على الإطلاق.. تخيّلوا كمّ التلوّنات التي أراه فيها، أفتح التلفاز فأراه، أقلّب صفحات الجريدة فأراه يرتسم في كلّ صفحة بصورة ولون جديد.. حين أطلّ من النافذة أراه مختبئا خلف شجرة الحكايات القديمة يلوك علكا ويضحك ساخرا. أغلق النافذة سريعا، أتوتّر، أغضب من لا شيء، أهدّئ نفسي وفاءً لنصيحة السيد "ه" وأخذا بها فلا أفلح، أتحرّك سريعا، تتسارع دقات قلبي المريض، أقول حينها لأرقب المدينة من الشرفة وأنظر. هكذا أنا بعيد والمدينة صاخبة منهكة القوى من فرط رقصها.. أطلّ وأرقب، الشمس تنعش عظامي التي أكلتها الرطوبة، وصدري يبتهج بهواء السماء.. أنظر أسفلي، المدينة داكنة ألوانها، شاحب وجهها شحوبا يخيفني، الناس فيها كالسكارى وما هم بسكارى.. منشغلون بالأمس، يلملمون حكاياته، يخبّئونها للغد كي يتأمّلونها وهم يلاعبون قططهم الكبيرة السمينة

كريهة الوجوه.. الناس في مدينتي لا يكفّون عن الرقص واللعب. ومع ذلك لا يضحكون.. أستشعر دائما ذلك البؤس الذي يغطّي ملامح وجوههم، ذلك العبوس وذاك الحزن في عيونهم.. أدقّق النظر فأراه.. يندسّ بين الناس عابثا، يسارع بخطاه ملاحقا امرأة حرصت على إظهار عجيزتها.. تتمايل فتبدو كالراقص على الجمر، يسارع بخطاه نحوها ويبسم طربا برؤيتها.. ربّما كان صديقها القديم وربّما كان يحبّها. ربّما يريد أن يعيد لأيامه عهود الطرب والزهو.. من يدري ربّما كان رجل لهو وفرح في الماضي. لطالما دعاني لمجالس لهوه وفرحه منذ عرفته، لكنّني لم أجد في ما يدعونني له حين أجبت دعوته في تلك المرات القليلة سوى همّا وغمّا وحزنا يستوطن النفوس فلا يغادرها.. أفّ له ماذا يريد من المرأة المسكينة بارزة الردفين؟

ينتابني القلق، تغلي سوائلي الداخلية إلى حدّ الاحتراق، أترك النافذة وأستلقي مغمض العينين وزافرا تعفناتي كي

أرتاح.. كل تلك الحوادث ليست شيئا.. حين أستلقي أتذكّر وصيّة السيد "ه" وتحذيره الذي ما انفكّ يردّده.. "كن هادئا، لا تجعل من نفسك عدوا يستنزفك.. فقط كن هادئا." تعجبني هذه الكلمات وأستبطن فائدتها. أرنو إلى الأفق البعيد داخل تأملاتي وأحلم بالراحة المشتهاة، ألتفت وأنا مغمض العينين فأراه.. يبدو بائسا ومسكينا يثير شفقتي، يبسم لي فيفور الحقد داخلي.. تقف وراء ابتسامته البريئة كل قدراته في التدمير.. أطرده من ذاكرتي، أغلق ملفاتي الداخليّة، ألتحم بحشيتي المزركشة وأطمع في نوم يريح أعصابي التلفة..

هو في الحقيقة لم يطلب غير صداقتي، الصداقة شيء ثمين ربّما.. ومن الممكن جدّا أن يجد فيها راحته، إن الصداقة هي مسار انفتاح على الآخر حين نسمح له عن طيب خاطر بمشاركته حكاياتنا. وربّما كان هذا الأبله وحيدا.. وحيد تذيب الوحدة قلبه فيلقي بنفسه إليّ طمعا في

الأنس والمشاركة. الوحدة نظام موحش للكثيرين، إنّها مشكلة ترغمنا على عيش أدوار مختلفة في وقت واحد لكن دون زهو ودون تصفيق، حيث نحن مجرّدون من الانسياب والنسيان.. أن تكون مختلطا ومندمجا، يعني أن تنساب بلا مراجعة أو خوف، بلا شكّ في أناك وفي الصورة التي ترتسم إذ ثمة من يرسم صورتك في عينه، وهذا سطحيّ وبعيد عن العمق.. أما حين تكون وحدك متوحّدا مع أناك فإنّك تكون في الجحيم المستعر لذّة حقّا.. التساؤل يحفر داخلك عميقا، الصورة ضبابيّة سريعة التلاشي، وتظلّ تحفر عميقا وتنزف حيث لا يطّلع آخر على جرحك الموجع سوى الآخر المقيم فيك كأناك، وتلك هي المأساة.. إنّ الوحدة عمق..

أتمعّن في تفاصيل يومي كل يوم، أمشي، أتحرّك، أغوص وحيدا منسابا في طريق مقفر من طرق المدينة، أتذكّر تلك الجميلة التافهة التي أذابت قلبي.. هل أقول حبّا؟ أقول وما الدّاعي؟ ربّما لم تكن غير صورتها ترتسم في مخيلتي بوصفي

ذلك الآخر السطحيّ، انجذابي لها إذن لا يعدو أن يكون أمرا سطحيّا، بلاهتي بوصفي آخرا لا وقت له ليسأل فأسمح للصور والانطباعات أن تنساب.. هذا التعلّق واهم وسطحيّ والحبّ هو عمق الانسياب والنسيان والتيه..

أتساءل دائما في وحدتي عن أخطائي.. ترتسم بين ناظريّ حماقات كبرى تفسد مجرى التاريخ.. فيم كانت ثرثرتي مفتوحة مع رجل بالكاد أعرفه؟ ثرثرة بلا فائدة وبلا نتيجة لم تسبّب لي غير مزيد من التعب النفسيّ والتفكير باللاشيء.. إنّ التفكير باللاشيء يغدو تقريبا كلّ شيء.. كلّ شيء متوقّف على الإحساس، إنّنا في وحدتنا لا ننساب بل نقيم كثيرا وطويلا داخل أعماق الآخرين، أي داخل أعماق أنفسنا. نفكّر إذا ما كان هناك شيء يمضي داخل عقول الآخرين كما ترسم لنا أوهام حساباتنا.. في الوحدة نستشعر أنّ لكلّ شيء معنى لكنّنا نضيع وراءه لأنّه معنى يعذّبنا.. الجانب المشرق لوحدتي ولأعترف أني إنسان وحيد وسعيد،

هو في تشتتنا اللذيذ بعيدا عن رقابة الآخرين.. إنّ هؤلاء لمستعدّون لإفساد كلّ شيء داخلنا إذا ما تواضعنا وسلّمناهم أنفسنا، وعلى ذواتنا أن تبقى ملكنا وما من ضامن لذلك غير الوحدة القاتلة..

السيد "ه" يفهم ذلك جيّدا. إنّه يريد مساعدتي دون أذيّة، دون إزعاج أو تورّط في تفاصيلي الصغيرة أو الكبيرة.. ربّما كان يحبّني، هو عميق والحبّ يليق به. أمّا هذا الأبله الذي يلاحقني فهو سطحيّ، سطحيّ ومزعج..

داخل أحلامي أراه.. إنّه يتخذ صورة كلب، أنا دائما ما أرى الكلاب تلاحقني في مناماتي التي تشبه أفلام مصّاصي الدماء، يضطرب نومي وأصيح.. أبتكر الحلول دائما لأهرب وأقول داخل حلمي متى ينتهي هذا العذاب؟ عليّ إذن أن أكون هادئا كما يأمرني السيّد "ه". إنّ السيّد "ه" لحكيم..

ما إن أغادر حشيتي الباردة حتى أراه على باب غرفتي.. أنزلق منه وأدخل تحت الماء.. أتركه ينساب حتى يبلّلني..

أتبلّل كثيرا.. إنّ ذلك يهدّأ سوائلي، يمنحني البرود ويريحني من التفكير باللاشيء لبعض الوقت.. حين أتبلّل جيّدا أنسحب إلى الخارج.. إنّي أشتاق إلى المدينة، أمرّ بحياديّة على كلّ ما أراه كي لا أتورّط في الصداقة مع الغرباء.. إنّهم مقرفون ومزعجون ومعتدون.. عليّ أن أكون حذرا ومحايدا كي لا يطمعون في صداقتي أو يتحفّزون لمعاداتي.. تلك هي الطريقة الناجعة للنجاة ما دمت أشاركهم مرغما العيش في هذا الفضاء المشترك..

ألتفت فأراه.. يلتصق بي، يسايرني ساقا بساق وجنبا إلى جنب، ألتوي في المسارات الصغيرة وأنحني مع المنحنيات وأميل مع خطوط مائلة كي يذهب عني أو يتوه أو يدوخ.. لا يتركني.. يصيبني الدوار، أنشغل بنفسي ثانية، أحاول أن أدفع عني إمكانية التفكير به، يفور مني الدم وألتهب.. أتهيّج وتتشنّج أعصابي، أستشعر شيئا يضغط على رأسي، أستشعر ألما بعظامي.. أُرهق جدّا، أتحدّى وجعي، أجري متحاملا

على نفسي بلا طاقة للجري.. أتساقط وأتمايل، ألتوي كثعبان.. لا يتركني..

حين أتعب وأجلس على الحافّة يقف قبالتي.. ينظرني بتحدّ ويبتسم.. أستسلم، أهزم، أرتخي وأضيع.. ألقي بنفسي إلى النوم كما يلقي الغريق نفسه هبة للبحر.. النوم جنة، النوم مهرب لذيذ وملاذ.. أستلقي إذن على حافة الشارع، أنسحب، أسافر، أتوه، أضيع.. أستشعر وقع الأقدام، طرطقة الأقدام الخشنة.. أسمع همهمة.. ضحك وسخرية.. تافهون ومجانين كلّ أولئك الذين مرّوا ساخرين.. السيد "ه" بعيد.. لو كان هنا لحملني إلى سريري حيث أنعم بالدفء.. ربّما كان السيّد "ه" قريبا من هنا، يراقبني من مكان ما، ربما هو يراني، ربّما يفعل شيئا من أجلي بعد.. هذا الاضطراب مرّ، هذا الاضطراب مرّ، هذا الاضطراب مرّ وذاك السؤال حرّ، ذاك السؤال حرّ.. لكن عليّ أن أكون هادئا، وأن أحافظ على هدوئي لأطول وقت وأوسع نفس..

ليلة الثامن عشر من فبراير ٢٠٢١، الساعة منتصف الليل بعد..

□

رُهَابْ

كنت أرتجف، نعم كنت أرتجف وكان الظلام يزحف حولي ويمتدّ كطائر أسطوريّ يغطي جناحه المدينة. وكانت الأشياء من حولي تختفي وتضيع كأنّها بلا وجود.. زحف عليّ ألم غريب.. حسنا لم يكن ألما حقيقيّا بل أقسى.. استشعرت ضعفا يرجّ عظامي وخوفا يهدّني، عانيت كثيرا من الرّهاب، ذاك الشعور الذي طالما دكّني وأوقع ألما لا يوصف بمعدتي. يأتي الحادث، تقع الرهبة، يُخطف قلبي جرّاءها، ثم تستقرّ في معدتي رهبة تشبه إذا أردنا الوصف قبضة رجل شديد.. تستمرّ تلك الرجفة بمعدتي ثم تزول تدريجيّا. وبعد تواتر الصدمات تصبح شعورا دائما بالخوف الذي يسكن معدتي.. لا أدري شيئا بخصوص استقرارها هناك ولا أدري لهذا المرض اسما ولا علاجا، غير أنّه يستمرّ معي دائما ويسكنني كشيطان، ثم ينتقل ذاك الإحساس إلى الرأس والمفاصل والعظام، ثم تخور قواي وأرتعش، أرتجف..

الكتابة وأهلها

الآن عليّ أن أسير، أن أقطع هذا الطريق الطويل. السير وأنت ترتجف أعسر بكثير من الهواجس التي تنتابنا في لحظات تيهنا ونحن جالسون أو واقفون. لكن يبدو أنّه لا خيار لي، عليّ أن أصل تلك النقطة التي يبدو من الواجب أن أصلها.. حين أصل إلى هناك سأبلّغهم بالذي وقع وبضرورة مساعدتي.. عندما يحلّ الظلام بي وأقع في مثل تلك المشكلة فإنّي أكون محتاجا لأولئك البعيدين.. ربّما هي لحظات الضعف والهزيمة الأشدّ وقعا وخذلانا. وإذا ما حلّ الظلام بي وبالمدينة، فإنّ ذلك معناه السقوط، معناه الهزيمة والعجز..

في منتصف الطريق أتوقّف. تنبح كلاب حولي لا أراها. أنفتح على لوعتي وأتذكّر مناماتي.. عادة ما أرى الكلاب كثيرا في مناماتي، منامات مرعبة تبعث اللوعة في القلوب والخوف في النفوس، لكنّها تنثني على متعة سينمائيّة مع ذلك، إنّ تلك الصور والمشاهد لتسعدني.. دائما ما أرى

نفسي مطاردا من كلاب، كلاب شرسة ومدرّبة على العظّ والفتك، أنفلت وأتحايل، أسلك طريقا آخر، عادة ما أجد على الطريق الذي اخترته كلبا كبيرا يحتاج اجتيازه مني مجهودا عظيما.. أرى منازل وأهداف وأشخاص أحبّهم تحول الكلاب بيني وبينهم دائما.. الكلاب تحول بيني وبين ما أحبّ ومن أحبّ.. مناماتي لا تفضي إلى نتيجة. أكون حذرا دائما فلا الكلاب آذتني ولا الأهداف بلغتها.. عادة ما أقف في المنتصف متردّدا حائرا وطامعا وحذرا. مثلما أبدو الآن تماما..

مناماتي ربّما عكست حياتي حرفيّا، فإن الكلاب عادة ما تحول بيني وبين أهدافي وهاهي تنبح فأتسمّر في مكاني حائرا وخائفا.. ربما يُستحسن أن أعود قبل فوات الأوان. مازالت أمامي فرصة للنجاة قد لا أضمنها لاحقا.. ربما بعض الخطوات وتشتم الكلاب رائحتي ورائحة خوفي فتهجم وتنبح وتعظّ مستغلّة فرصة قد لا تتكرّر لها في الفوز برجل وحيد لا

طاقة له بمقاومتها مجتمعة، بل يقدر كلب واحد أن يبهذل ذلك الوحيد الذي يقرأ للكلاب ألف حساب وحساب..

تسمّرت بمكاني حائرا وخائفا، ارتجفت واشتدّ ارتجافي. الخوف يأكل قلبي، يعصره كاسفنجة، كقطعة جبن بيضاء رخوة وشهيّة، وجهي يحمرّ، دمي يحتقن، ودقات قلبي أسمعها، يصلني وقعها كقرع طبول حادّ. لا أقوى على الحركة، تتراءى لي سيناريوهات مخيفة لما يمكن جدّا أن يحدث.. ترتسم بين عينيّ الكلاب تنبح، تكشّر عن أنيابها وتسبّني بكلام لا أفهمه.. أرى ألوانها المتمايزة القبيحة، كلّ الألوان جميلة إلا متى التصقت بالكلاب.. أرى عيونها، كتلة من الجنون والعبث. أرى أنوفها تشمّني، أراها تهجم محاولة الإيقاع بي وأنا وسط الدائرة الملعونة لطمعها وخوفي.. أرى الظلام يزحف على قلبي، أرى إحساسا عميقا بالغياب والموت قبل مجيئها.. أشتعل، أرتبك، أُشلُّ، أودّ لو أبكي.. لا أبكي..

لم أجانب الحقيقة، فها هو أحدها يظهر سريعا.. ينظرني، ينبح، يهزّ رأسه وينبح ثانية.. يتقدّم نحوي مسرعا وهو لا يكفّ عن النباح.. أختطف حجرا، أودّ لو أصرخ، أودّ لو أهرب، أودّ لو أرى قدما تتحرّك، آيس سريعا من ودّي فمدينة الكلاب مقبرة ينام أهلها الطيبون ويختفون من الساحات بحلول الغروب.. أجد نفسي في مواجهته؛ كلب أحمر بعينين حارقتين. يكشّر عن أنيابه ويسبّني، ألوّح بحجري تجاهه، لا يخافني، لا يهرب، لا يهجم.. تظهر كلاب أخرى مخيفة وكثيرة.. تلتحق بزميلها تلتفّ بي، تكشّر عن أنيابها وتستعدّ للهجوم.. أصرخ، أصرخ، أصرخ عاليا.. أصرخ بلا نيّة وبلا فائدة، حركة أخيرة للمقاومة بلا أمل وأنا وسط دائرة من الكلاب.. ألتفت، أجول كعقرب ساعة سريع مهدّدا الكلاب الكثيرة حولي..

توقّفتْ فجأة، نزل منها ذلك الرجل سريعا، اقتحم الكلاب وصوّب دبّوسه نحو أدمغة بعضها.. سال الدم منها.. لاذ

بعضها بالفرار فيما بقي بعض آخر في المواجهة.. أحدها يصبّ جام نقمته عليّ، يحاول أن يصل إليّ فيعظّني.. يريد أن ينتقم لرؤوس الرّفاق المهشّمة. ذلك الرجل الضخم لا يتركه يصلني، أيّ رحمة لاقتني؟ يقتحمني صوت من الخلف؛ اركب.. ألتفت، أرى باب السيارة مفتوحا في انتظاري غير أنّي لا أقوى على الحركة.. لا أقوى على الكلام..

"قلت اركب.. اركب بسرعة." يردّد الصوت ثانية بصوت أعلى وبلهجة أقرب إلى التوسّل. أندفع أحاول تحريك قدميّ.. لا أستطيع، أبدو وكأنّي مثبّت إلى الأرض بالغراء أو المسامير.. ألوّح بيدي للسيارة، ينزل آخر، يحملني بين ذراعيه كعروس شابّة.. يضعني بهدوء داخل السيارة فأفاجأ.. صالون جميل ومتقن التأثيث، ما يُفترض أن يكون كراسي خلفيّة للسيارة يبدو لي قاعة فخمة متقنة التأثيث تشبه تلك القاعة الفسيحة التي دخلتها حين دُعيت للقاء الدكتور في بيته، يومها فرح الدكتور جدّا بلقائي لدرجة أنْ ابتسم في

وجهي وسقاني عصيرا باردا.. لم يطلب شيئا مقابل ذلك غير إمضاء بسيط مني ولا يُكلّف أيّ جهد. مجرّد خربشة على وجه واحد من ورقة ملطّخة بالحروف والحبر والأوامر.. حين سألت الدكتور عن تلك الأوامر ومعناها قال لي بلهجة امتعاض ونفور:" ترّهات لا يجدر أن تشغل بالك بها.. ألا تعرف ثرثرة القانون وأهله، دائما ما يردّدون بعد إطلاعه على كذا وكذا، وما من كذا وما من هراء.." ثم ضحك وأشار لي بالخربشة مبتسما فخربشت.. قبل أن أخربش التفتُّ ناحية النافذة فتراءت لي كلاب كثيرة تنبح وتزمجر وتسرح وتمرح.. ارتعبت بينما كان الدكتور منتشيا. ربّما كان يحبّها وربّما هو شجاع لا يخاف الكلاب مثلي.. نظرت حولي فرأيت كلبا ضخما سمينا يقبل نحونا، وبينما يأكل الرعب قلبي تقدّم ذاك الغول ليتمرّغ عند أعتاب الدكتور ويتمسّح على قدميه فيما كان هو يضحك ويقهقه.. وعندئذ خربشت تحت وقع خوفي مردّدا يا له من كلب!!

"أنت رجل محظوظ.." قال سائق السيارة العجيبة.

"لو لم نأتِ في الوقت المناسب لكنت وجبة للكلاب.." قال الرجل صاحب الدّبّوس وقد استقرّ راكبا جنب السائق جاذبا الباب خلفه، بعد أن فرغ من مواجهة الكلاب..

"لا يبدو وجبة دسمة.." قال الرجل الذي حملني بين ذراعيه وهو يجسّني قبل أن ينفتح على الضحك الهستيريّ..

صمت..

حدث صمت فجأة امتدّ وقتا لا أعرفه قد يقارب ربع ساعة بحسابات حياتي لمّا كنت خارج السيارة!!

"لكن لماذا لا يتكلّم؟" قال رجل رابع أبله، يكشف وجهه عن بلادة عقله..

فتحت فمي أهمّ بالكلام، وددت أن أشكرهم، أن أبلّغهم امتناني لفضلهم عليّ. لم أستطع.. اختفى صوتي تماما واختفت معه قدرتي على الكلام، لوحت بيدي أشرح لهم وأشكرهم ضامّا يدي إلى صدري، التفتوا إليّ مبتسمين..

أردت أن أعتدل في جلستي فلم تطاوعني قدماي ولم تتحرّكا قيد أنملة.. كنت فقط أحرّك رأسي ويداي..

"العلامة!!" هتف الرجل الرابع البليد وفغر فاه دهشة..

التفتوا نحوي مبتسمين، أومئوا برؤوسهم مصدّقين، ذهلت، تهت، بكيت..

"الزعيم يبكي مثل الأوغاد.." قال الرجل صاحب الدبوس وضحك.

أشرت بيدي إلى نفسي وأنا أبكي فأومئوا مصدّقين لي..

"علامته أن يُنتشل من محنة تحرمه حقّه في الكلام والحركة حتى حين.." قال الرجل الثالث وابتسم.

"وأصل النبوءة هكذا؛ من وسط الظلام جذبوه، بين ذراعين حملوه، وعلى عرش عُصبتهم أجلسوه، رأس عُصبتهم صيّروه.." قال الرجل الرابع وضحك في سخريّة!!

حرّكت يديّ بعصبيّة أحاول أن أشرح لهم أنّي رجل بسيط وجبان ولا يمكن أن أكون المقصود بنبوءتهم، حاولت أن

أخبرهم محتجّا أنّي لا أريد أن أكون زعيما لأحد، وأنّي غير معنيٍّ إطلاقا بما يذهبون إليه.. حاولت وحاولت.. لا فائدة..

حاولت أن أخبرهم أنّ لديّ مشكلة عويصة تنتظر حلّا أكيدا ومساعدة، لم يفهموني.. اكتفوا بالابتسام لي..

"سوف تجد معنا ما يسرّك فأنت زعيمنا الآن.." قال الرجل الثالث فأومئوا له مبتسمين..

أحسست أنني وقعت في جوقة مجانين.. أحسست أنّي لست حرّا.. تحسّست جيوبي الداخليّة، أخرجت صورة ابنتي وأريتهم إيّاها.. تخاطفوها بينهم، تبادلوا النظر فيها بافتتان، ضحكوا وهم يتأمّلونها..

"أحسنت الاختيار يا زعيم.. تريدنا أن نخطفها ونطلب فدية؟" قال الرجل صاحب الدبوس.

"يا لها من فكرة رائعة!" قال الرجل الذي حملني بين ذراعيه كعروس.

"نحن موافقون بالإجماع دون ثرثرة!!" قال الرجل الرابع الأبله.

حاولت أن أشرح لهم أنّها ابنتي، كبدي، نور عيني وسلسبيلي، حاولت وحاولت.. ثرثرت يدي في حركات شتّى أغلبها بلا معنى لمدّة نصف ساعة تقريبا بتوقيتنا قبل حادثة الكلاب.. ضحكوا كأن لم يفهموا. ربّما كنت في نظرهم مجرّد مهرّج أحمق يلطّخ وجهه بالمساحيق ويتصنّع البلاهة.. ضحكوا كثيرا واستمتعوا فيما كنت أجهد وأتعب. وبينما يغلبني النعاس أسمع الرجل الرابع الأبله يقول:" يا لهذا الزعيم، كم يبدو مسلّيا وطريفا.."

غلبني النعاس فلم أدر كم من الوقت استغرقت السيارة في التحرّك سريعا.. استفقت لأجد نفسي جالسا على العرش. كرسيّ طويل القوائم، متقن التصميم والتطريز، أجلس فوقه فتتدلّى ساقيّ كالمعلّق بين السماء والأرض.. أنظر أسفلي فيتراءى لي خلق كثير كالأقزام لا أعرفه..

"الزعيم استفاق.. الزعيم استفاق.. هلّلويا!!" هتف ذلك الخلق بابتهاج.

"دعوني أذهب ابنتي تحتاجني.." أقول سريعا بعدما تذكّرت ابنتي فجأة.

"الزعيم يتكلّم.. الزعيم يتكلّم.. هلّلويا!!" يهتف الخلق بابتهاج من جديد.

"دعوني أذهب، قلت دعوني أذهب.." أنادي فيهم غاضبا فيصمتون. يتضاءل الكرسيّ، ينزل إلى الأسفل فأتهاوى تدريجيّا كأنّني داخل علبة مصعد كهربائيّ.. أصير قريبا منهم، قريبا من الأرض، أتمشّى بينهم فيتمسحون بأثوابي، أرفع يدي وأمسح رؤوس بعضهم..

"الزعيم يباركنا.. الزعيم يباركنا.." يهتف بعضهم بابتهاج.

"يا له من زعيم حقيقيّ!" يهتف آخرون فخورين.

تتراءى لي أقوام من الأطفال اللاعبين، أرى فرحهم ولهوهم، يبتهجون عند رؤيتي فيركعون على سبيل التحيّة.. يظهر من بين ذلك الخلق المهلّل، الأربعة الذين جلبوني معهم في السيارة العجيبة. يرافقونني إلى الخارج ونركب جميعا السيارة الصالون، تلك التي يختفي فيها إحساسي بالوقت..

"ما سرّ أولئك الأطفال؟" أسألهم.

"غير معقول، الزعيم لا يعرف سرّ الأطفال!!" يتكلّم الرجل الرابع فيضحك البقية.

"سيّدي الزعيم، أولئك الأطفال هم رصيدنا وكنزنا وسرّ عملنا، نحن نخطفهم، ندلّلهم، نربيهم ونعلّمهم، ثم نطلقهم ليمجّدوننا في الأرض.. وأنت صرت زعيم عصابتنا منذ هذه الليلة!!" يجيبني الرجل الثالث ويشرح لي، ذاك الرجل الذي حملني بين ذراعيه مثل عروس..

أزهو، أفرح، أمتلأ فخرا.. ينطلقون بي نحو عنوان بيتي دون أن أدلّهم على الطريق.. حين أصل ألتفت إلى الذاكرة فلا أتذكّر شيئا من تفاصيل الطريق الذي سلكناه نحو بيتي!! أسألهم؛ لماذا لا أتذكّر الطريق الذي سلكناه مع أنّي تمعّنت جدّا تفاصيله؟

"ذلك فضل المورفين عليك.." يقول السائق فيضحك من حولي بقيّة الرجال..

أذهل، أتوه، أتكوّم إذ لا أفهم..

"لا تخشى شيئا، ناولناك حبّة، مجرّد حبّة.. أنت الآن زعيم عصابة لخطف الأطفال ومن واجبنا حمايتك." يقول الرجل صاحب الدبوس.

عندما يفتح لي الرجل الثالث الباب ويشير لي بالنزول يضيف على سبيل الشرح:" إذا ثرثرت كالحمقى بين الناس أنّك زعيم عصابة لخطف الأطفال، لن يصدّقك أحد وستُرمى بالجنون وتعاطي المخدّرات، لأنّك لا تذكر الطريق إلى

أتباعك.. أيّها الزعيم المبجّل عندما نحتاجك سنعرف كيف نصل إليك مجدّدا.. اسمح لي.."

حين أنزل، يناولني الرجل الثاني صاحب الدبوس ساعة زرقاء، يبسم لي، يردّد الجميع حولي، مورفين.. مورفين.. تنسحب السيارة وتشقّ الليل سريعا..

حين أدخل بيتي تسألني زوجتي:" لم تبطأ.. هل جلبت الدواء لابنتك؟"

"لا وقت لديّ، فقد عينوني للتّو زعيم عصابة لخطف الأطفال!! أعطها حبّة مورفين.."

ـتمّت ٢٠٢١/٠٣/٢٤، الساعة التاسعة ليلا.

نصف رطل من اللّحم

"أمازلت تحبّها؟"

سألتني.

كلّ النّاس هكذا، مرضى بشيء ما..

ثمّة أمراض علاجها عند الطبيب، ربّما.. وأمراض لا نحيا بدونها.. نموت إذا فقدناها.. تلك الأمراض هي جزء منّا، من ذاكرتنا، من عاداتنا.

أو كما يقول الشاعر في سياق آخر "من جرحنا، من لحمنا.." أليس السّهر عرض من أعراض أمراض كثيرة لا نُلقي لها بالا، عفوا بل نسخر من أصحابها..

السهر عرض لمرض الهذيان الشعريّ

عرض للكتابة

عرض للحبّ

وعرض من أعراض الاكتئاب والإحساس بالدونيّة..

عرض لأمراض أخرى غريبة وغير متوقّعة..

بالنسبة للاكتئاب تستطيعون علاجه عند الطبيب النفسي.
أمّا الهذيان الشعريّ فلا شفاء منه!!

- همم!!

هممت لتسمع إجابتي، وكنت أحتمي بالصمت..

ما معنى أن يوجّه لرجل في الأربعين في دولة من دول العالم السابع مثل هذا السؤال؟!!

إنّه سؤال بلا معنى وبلا جواب وبلا منطق.

صراحة..

نعيش حياتنا بعيدا عن الناس، لا أحد يعرف ما يدور في ذهن الآخر.. نتغيّر تسعون درجة.. نخطّط ونعمل، نبحث ونسافر، نُرهق ونُضغط، ثم..

سؤال بلا معنى؛ أمازلت تحبّها؟

- نعم ربّما أحبّها وأحبّك وأحبّ الجميع، فلم تعلّمني الحياة أن أكره.. كما أنّها لم تعلّمني الحبّ..

صراحة..

رسمت على ثغرها ابتسامة، (تذكّرت قول صديقي ميمون "ابتسمت أو رسمت بشفتيها هلالا، نفس المعنى لكنّ الثانية أكثر شعريّة وإلهاما)

يبدو ميمون هذا شاعرا!!

- مراوغ.. أنت مراوغ..

ابتسمتُ، أو بالأحرى رسمت بشفتيّ اليابستين المشقّقتين هلالاً إلى أعلى، (هكذا أجمل وأعمق على حدّ رأي ميمون) وانصرفت..

عليّ أن أدرك السّوق. أمّي الحبيبة أتت لزيارتي هذا الصّباح. أنا أحبّ أمّي.هذا أمر عاديّ وبديهيّ، كلّ النّاس تحبّ أمّهاتها لدرجة إقامة عيدٍ للأمّهات كلّ عام..

لكن هذا اليوم ليس عيدا للأمّهات.. صراحة!!

ومع ذلك، كان عليّ الذّهاب إلى السّوق لأسعد أمّي بهديّة.. حسنا ليست هديّة كما يتصوّر الشّاعريّون (ربّما

تتخيّلون وردة أو فستانا أو خاتما من الذّهب..) بل هديّة كما يحلم المحرومون..

لم أكن أفكّر إلّا بشراء رطلين من اللّحم، صراحة..

اجتزت المسالك الملتوية داخل السّوق، ثمّة سلع جديرة بالاهتمام فعلا.. راديو كلاسيكيّ "أنتيكة"، مسحاة قديمة، مكواة ألمانيّة الصّنع.. هذا هو سوق الخردة، وهو يليق بي فعلا..

من ناحية تلذّذ الذاكرة بإحالتها على زمن الهدوء والحنين للماضي، فإنّ سوق الخردة لذيذ.. ربّما كان ذلك مرض يصيب الذّاكرة.. ربّما كانت ذاكرتي خردة.. لكن ليس لي مال كافٍ لأشبع هوس الذّاكرة، سأكتفي بمتعة النّظر لتمارس ذاكرتي الاستمناء مع "الأنتيكات"! التّملّك بالخيال وليس على وجه الحقيقة.. هل للحقيقة من بدّ؟!

لا ضرورة لذلك، سأستمرّ..

منذ أربعين عاما وأنا مستمرّ في الحلم إلى ما لا نهاية، ولم أحسن غيره.. (عهر شاعريّ، على حدّ قول صديقي ميمون)

أمّي تحبّ "الحشائش"، (الخضر الورقيّة بتعبير خبراء التغذية). سأقتني لها باقات من البقدونس والسبانخ، هذا سيسعدها. أمّي تسعدها هذه الأشياء البسيطة..

هذه الخضر الورقيّة ليست في حالة جيّدة، تبدو مركونة منذ يومين في السّوق دون أن يشتريها أحد!!

إذن سأخفّف عن البائع، وأدخل في قلبه بعض البهجة بدنانيري القليلة..

الخضر الورقيّة أيضا صارت غالية.

"الباقة بدينار، بدلا عن دينارين." قال البائع.

"هات إذن باقة من هنا وأخرى من هناك."

زعم البائع أنّ السّوق يعمّه الكساد، فأخبرته أنّ جيوبنا أيضا فارغة.. (حسنا، نعاني الإفلاس وضعف القدرة الشّرائيّة بلغة خبراء الاقتصاد.. هذا الزمان ما أكثر مشاكله وخبراؤه!!)

باقة من البقدونس وأخرى من السبانخ، ستصحبني نحو القصّاب. (هذا الزمان ما أكثر جزّاريه أيضا!!) هكذا فكّرت وأنا أتقدّم نحوه في شارع طويل مزدحم بباعة البضائع الصّغيرة، المنتشرين على جانبي الشّارع، ينتهي عنده محلّه الصّغير. وفيم سيحتاج القصّاب محلّا واسعا، ولا شغل له غير تقطيع لحم خروفه المذبوح؟

أووه! آسف لخدش حياء مشاعركم المرهفة، فكلمة مذبوح لها وقع سيّء مفضوح..

وصلت محلّ قصّابي بعد إحراج لا يستشعره كثير من النّاس، وأنا أتجاهل نظرات الباعة البسطاء وهم يغازلونني بأعينهم رغبة في تواضعي وتنازلي لشراء شيء يسير منهم..

"صباح الخير." قلت.

رسم هلالا إلى أعلى بشفتيه.

"أزن لك من الفخذ أم..."

"أريد بعشر دنانير." قلت مقاطعا.

امتعض. اختفت الابتسامة. نظرني بإزدراء وإتّهام، ثمّ أخفى الفخذ المغري بالثّلاجة. أخرج قطعة أخرى كثيرة الضّلوع. اقتطع قطعة صغيرة من لحم الضّلوع ووزنها. (القفص الصّدريّ بلغة البياطرة)

"أربعة عشر دينارا." قال متهيّئا للفّها.

بحثت داخل جيوبي، لديّ دنانير قليلة مبعثرة بين الجيوب..

"هؤلاء الفقراء أمثالي يوزّعون "صرفاتهم" بين الجيوب ليستشعروا امتلاءً شاعريّا يفتقدونه على وجه الحقيقة." قلت في نفسي وأنا أخرج الدنانير المتفرّقة..

"سبعة دنانير، هذا ما وجدت!!"

غضب القصّاب ظانّا أنّي أسخر منه، ولأنّ غضبه كان شديدا، وهو رجل يحاذر أن يغضب كي لا يتهوّر فيلقي به تهوّره إلى ارتكاب جريمة. وهو المحاط بكلّ الأسلحة البيضاء..

ولأنّ غضبه كان شديدا، فإنّ قصّابي قد حوّل كلّ تلك الطّاقة إلى ضحك عارم، فشاركته ضحكه!!

عدوى الضحك طبعا، من المؤكّد أنّكم سمعتم عن ذلك شيئا يسيرا..

وسط ضحكه وتحريك رأسه تأسّفا، طفق يقسم قطعة الضّلوع الصغيرة إلى نصفين بحنق، حتى ظننته يتمثّلني مكانها وهو يهوي عليها بساطوره حادّ الشّفرة. ثم وزن إحداهما وألقى بالثانية في الثّلاّجة..

"سبعة دنانير، نصف رطل.." قال هانئا وتنهّد!

"ممتاز." قلت وأنا أمدّه بدنانيري السّبعة متهيّئا لتناول كيس اللّحم من يده..

ـانتهت فجر الرابع عشر من جوان لسنة ٢٠١٩

□

شيء ما يحدث

"كن حذرا من المدينة.. إذا دخلتها فتمعّن جيّدا وركّز جيّدا.. انتبه كثيرا لما يُقال، ولما لا يُقال.. وانتبه أكثر لما ترى، وتمعّن خلف ما لا يُرى أيضا. ففي التّفاصيل الصّغيرة يسكن الشّيطان!!"

هكذا قيل لي، وهكذا مضيت.. المدينة بعيدة والطّريق إليها شاقّ وطويل.

كان القطار بانتظاري والزّحام حوله شديد مربك لمن لا يحسنونه ولا يحتملونه أمثالي. ترك المنتظرون حجر الكراسي البارد وتقدّموا ليركبوا جوف الثعبان الأخضر ذي العجلات الحديديّة. أمّا أنا فوقفت بعيدا عن الزّحام أتلهّى بتأمّلي للتّفاصيل الصّغيرة للنّاس حولي..

النّاس تُسرف في الحذر والخوف.. كلّ النّاس حولي تخشى البرد والجوع. بدا لي ذلك من الطّرابيش الصوفيّة التي وضعها الرّجال على رؤوسهم، ومن المعاطف الخشنة التي

التفّوا داخلها جيّدا. ربّما يحلم عجوز من بين هؤلاء الرّجال بالنّوم داخل القطار حينما يتمثّل له معطفه الصوفيّ كلحاف قطنيّ مناسب للشّتاء..

النّساء أيضا اعتمرت الطّرابيش الصوفيّة والمعاطف الخشنة، لكن بدت لي معاطفُهُنّ أكثر جودة من معاطف الرّجال، فهي لامعة ونظيفة. أمّا طرابيشهنّ فملوّنة!!

لم يطل بي الانتظار، فلهفة النّاس على الصّعود كبيرة لدرجة انتهائهم سريعا إلى الدّاخل.. تقدّمت عندها كملك وصعدت منفردا في هدوء ورصانة، تتبعني أنفار قليلة متفرّقة كحاشية، فيما كنت مزهوّا مغرورا كطاووس. أترنّح في مشيي داخل بهو العربات..

جلست أخيرا وأرحت عظامي المرهقة جرّاء الوقوف، فوق كرسيّ مكسور.

"إنّي لمحظوظ!" قلت داخلي.

ذلك أنّي أحبّ الجلوس جنب النّوافذ، وكرسيّي المكسور كان بجانب النافذة حيث لا يفصل بيني وبين العالم الخارجيّ عدا قطعة بلّور شفّافة، لم تكن مكسورة لحسن الحظّ أيضا..

متعة السّفر في الفرجة على العالم. إنّنا داخل القطار معزولون وفريدون من نوعنا، نقيم داخل عالمنا الخاصّ بعيدا عن ضوضاء هذا العالم. وعندما أكون جنب النافذة، فتلك فرصة لأكون سيّدا خياليّا على عالم حقيقيّ يتحرّك من حولي بينما أكون أنا ثابتا، جالسا ومرتاحا..

السماء حزينة، فهي ملبّدة بالغيوم وداكنة، وألق المدينة مدينتي بعيد يتلاشى سريعا كوصايا أمّي والجبل. والقطار يطوي المدى، والأشياء حولي تغيب. وأشياء أخرى ما تلبث أن تختفي منّي حالما أدركها.. أنعزل عن النّاس حولي وأرقب.. هؤلاء رعاة ينشغلون بتأمّلاتهم عن مواشيهم، يحيط بهم سلام الربّ والسكينة. هل ينتظرون بشارة الملاك بولادة المسيح؟ وهذه أرض جدباء مقفرة تشبه الصّحراء الممتدّة بلا

نهاية، حيث يوشك أن يسلكها بدويّ شديد القرب في ملامحه من سراقة!!

ربّما كان القفر والصحراء داخلنا أوسع بمسافات لا تُقاس، وربّما كانت الحياة مجرّد نزهة عبر المسالك الممتدّة حيث نحن نتأمّلها من خلال بلّور القطار، وحيث الأحداث والأماكن تمرّ كالذكريات مرّ السّحاب..

"الكراسي صدئة.."

قال رجل فانتبهت والتفتُّ. طالعني وجه أسمر نحيل مبتسم بملامح صدئة.. لا أدري متى جلس قبالتي، لكن بدا أنّه جليس قديم جالسني مُذ تحرّكت دواليب القطار..

"إنّهم لا يُجدّدون شيئا داخل العربات.. ما تلف قد تلف، لا يهتمّون لارتياحنا ولا لبؤسنا.. المهمّ أن ندفع!"

أضاف جليسي الأسمر.

"كم يحتاج الصّدأ داخلنا من وقت وعمل وتكلفة ليُصلح؟"

تساءلت داخلي، مبتسما لجليسي على سبيل المجاملة.

كانت خطّة ناجحة، الصمت في وجه الشكوى يُنجينا من ثرثرة المفرغين.. خمّنت أنّ جليسي يحبُّ الكلام المفرغ من المعنى لأجل تمضية الوقت. هو مشغول بي وأنا منشغل بدواخلي. فهمت بقوّة حدسيّة ما أنّه يريد أن يُمضي الوقت متحدّثا فصمتُّ، سامحا لابتسامة أن تبلّغ عنّي انشغالي بنفسي عنه.. هؤلاء الذين يُلقون الكلام في وجه الغرباء، غرباء عن أنفسهم. يستشعرون دائما حاجة للتكلّم مع الآخرين كي لا يثرثرون مع أنفسهم! دواخلهم متعبة لكنّهم مفرغون من الألم والفرح والمعنى. لذلك ينشدون ملئ فضائنا الخارجيّ بالضوضاء..

لم يجد جليسي أمر التّكلّم معي مشجّعا فلاذ بالصّمت، وارتسمت على ملامح وجهه الصّدئة خيبة. بينما لذت أنا بتأمّلاتي، وارتسمت على ملامح وجهي حيرة وبلاهة..

×××××

على عتبات محطّة المدينة، نزلت. كان من المفترض أن أجد صديقي هناك، لكن كيف أنتقيه وسط الزّحام؟ مضيت كتائه بلا همّ أتتبّع مساري وسط الزّحام وأرنو إلى الوجوه فاحصا. توقّفت ونظرت في وجوه الخلق على دكّة الانتظار.. الانتظار يملأ الوجوه بالحيرة، ويُذكي في القلوب نار اللهفة.. عندما ننتظر شيئا ما، فإنّنا ننشدّ إليه كما تُشدّ العقدة إلى الحبل. وعندها فما يكون غير الألم والضّجر؟!

عليّ إذن أن أجده قبل أن يُفنيه الضّجر.. ألقيت بصري في الوجوه سريعا، ثمّ بطيئا، مدقّقا لعلّه كان يختفي بينها. لم أجده.. كان يُفترض أن يقف هنا كعاشق أو كخادم، تكتسيه الذلّة ويكتسب أثناء وقوفه الطويل سمات الخدم؛ الولاء والحبّ والامتنان لعذاب المهانة..

تفرّست في الوجوه فاعتراني الضّحك فجأة كمجنون. امرأة كسيفة البصر تمدّ عنقها باحثة عن شيء، عن شبح، وربّما عن رجل حقيقيّ.. كلّما مرّ رجل تبعته ببصرها حتى يغادر

المحطّة. العجوز الذي يتوكّأ على عصاه منتظرا يتوه.. بصره منشدّ إلى لا شيء، وعقله سابح في التفكير بالغد ربّما.. هو لا يهتمّ لمن يأتي، بل يريد لمن يأتي أن يهتمّ له!!

ذلك الرجل يشبهني، لا يتوانى عن تتبّع المقبلين. يبحث في الوجوه عن الملامح، وربّما العلامات والذكريات كي يتعرّف ويرتاح..

لا فائدة، إنه بلا وجود، لم يأت لانتظاري إذن ولم يرض بالعاشق دورا!!

×××××

تجاوزت الحاجز المعدنيّ للمحطّة، وغادرت أخيرا بابها الأخير. وجدت نفسي في باحة واسعة تفتح على شوارع ممتدّة بلا نهاية. وعندئذ وجدته.. كان صديقا قديما عرفته أيّام الدّراسة الجامعيّة ومع ذلك كانت علاقتي به جيّدة رغم البعد والفراق الطويل وانشغال كلّ منّا بحياته وأوهامها وهمومها الكثيرة..

"مرحبا، نورت العاصمة." قال وقد أشرقت أساريره.

"بوجودك" قلت مبتسما على سبيل المجاملة.

سار فتبعته، مشينا طويلا وتعرّجنا مع الأزقّة الضيّقة سالكين وناظرين بشغف نحو البضائع القديمة حتى انتهينا إلى بيت قديم..

"بيت جدّي." قال فاتحا الباب. ثم دخلنا.

بيت واسع رخاميّ الأرضيّة، تتوسّطه عرصة تحيط بها أقواس مشدودة إلى أعمدة رخاميّة اسطوانيّة متينة، وعلى الجدران صور ونقوش وأحجار جميلة رطبة موشّحة..

جال بي بين ردهات البيت وغرفه، اقتادني عبر درجات مطليّة بالبياض إلى العليّة. في العليّة غرفة بهيّة ومناسبة للتأمّلات. غرفة من قصب الذرة وباب من القشّ ونافذة من الخيزران، سرير مبنيّ من الحجر مطليّ بالبياض، وعلى السرير الحجريّ حشية متينة رخوة ناعمة.. عند مدخل الغرفة انتصب كرسيّ من الخيزران، يميل لونه إلى البنيّ، كرسيّ بهيّ،

بسيط وجميل.. لم أتمالك نفسي فهويت جالسا على الحشية مسندا ظهري إلى جدار من قصب..

"أتعبك السفر؟" قال صديقي مبتسما لي ثم جلس على الكرسيّ.

"ربّما.. لكنّي لم أتهاوى جرّاء تعب مفترض.. ثمة سحر سحبني ملأ رئتيّ بعبق التاريخ." قلت منفتحا على مناخ ما من مناخات الإحساس والكلام.

***

لا أدري كم من الوقت نمت، ولا الساعة التي غادرني فيها صديقي.. أفقت فوجدتني في الظلام. سحبني النعاس فجأة فغفوت ثم نمت طويلا. أليس النوم ساحرا؟

تسلّلت الأضواء خافتة إلى الغرفة السحريّة الجميلة، اختلط ضوء القمر بأضواء مصابيح الشارع الذي امتدّ خلف المنزل القديم.. جلست متكاسلا في فراشي، ثم تقدّمت ناحية النافذة الخيزرانيّة. نظرت من خلف الشقوق أتأمّل

الشارع، كان الشارع خاليا بلا مارّة وبلا سيّارات.. شيء ما دفعني إلى النظر والتيه الطويل، وإلا فقلّي من يرض أن يتأمّل الفراغ دون أن يضجر سريعا فيعود أدراجه؟

غير أنّي لم أعد أدراجي، بل ظللت أنظر تائها ناحية الفراغ وساهيا.. لا أدري كم من الوقت مرّ وأنا كذلك. لكن حدث أن رأيت امرأة، وهذا ما توقّعته في خيالي فعلا قبل حدوثه.. تبخترت، تهادت ببطء، تمايلت..

على أطراف الشارع الشماليّة، توجد كراسي حجريّة. تقدّمت المرأة وجلست على إحداها. أعجبني ما أرى فظللت أنظر وأراقب.. بدا أنّها تفكّر، تمتطي خيالها مرتاحة وتتوه خلف أفكارها. أمعنت النظر فبدت لي كنجم بعيد ووحيد خافت الضوء.. شقراء مضيئة تميل قسماتها البعيدة إلى الحمرة، ظللت مستلبا وراءها ساهيا عن كلّ شيء. لم يخطر ببالي تساؤل ما، مثل من تكون؟ وفيم جلوسها؟ وفيم انتظارها؟ وفيم خروجها إلى الليل وحيدة.. لم أقو على التفكير بشيء،

ولم يخطر ببالي أن أفكّر. كنت مستلبا وراء حضورها الفيزيائيّ المربك لكن دون حبّ ودون انجذاب ودون فضول... لم يكن شيء من ذلك حقيقة.

لم يحدث أن عشت شيئا مثل ذاك. ما معنى أن تكون مستلبا إلى تلك الدرجة من الضياع، منسلخا عن كلّ شيء... وددت لو أقفز إليها، أن أتجاوز حاجز النافذة فأستوي في الباحة الصغيرة ومن الباحة إلى الجدار فألقي بنفسي إليها...

فتحت النافذة بهدوء، تسلقت قافزا منها وعيناي لا تنفكّان تتعلقان بالمرأة حيث بصري معلّق بصورتها لا يحيد عنها ولا يجد منها فكاكا. وجدت نفسي بالباحة متقدّما نحو الجدار وقد شرعت بعد أتسلّقه...

"ميمون..." جاءني صوت من الخلف فأفقت واختفت المرأة!!

نظرت حولي فإذا هو صديقي العاصميّ...

"توقعت أن يحدث هذا..." أضاف وجذبني يسحبني إلى الأسفل فيما كنت أنا أصحو من تيهي...

الكتابة وأهلها

توهّم

حين وصلتني رسالتها تذكّرتها. كانت تحبّني وكنت أنا أتلهّى عن إزعاجها لي بقراءة الكتب التي لا تنفع.. يحدث أن نتذكّر فتهيج أشواقنا فجأة وينتابنا إحساس بتوهّم الحبّ!!

السأم

هذه المرة تمالكت نفسي. بدا الأمر لذيذا في قلبي فاخترت أن أستمتع بثرثرته.. ثرثرة الحمقى مزعجة غالب الوقت، لكنّها قد تبدو مسلّية أحيانا كثيرة، كلّ شيء يعتمد على المزاج. متى كان رائقا ما أزعجتك ثرثرة...

إنّه طريق العودة اليوميّ.

عند المساء، وفي تمام الرابعة تحديدا أرتّب تلك الملفّات الكثيرة المتناثرة، أمسح على طاولة المكتب، أضغط على أيقونة غلق ملفات الحاسوب، أدفع بعجيزتي الكرسيّ الدّوار إلى الخلف، أنسحب، ثم أخطو باتّجاه الباب..

حين أغادر مكتبي يتلقّفني رواق طويل. ذاك الرواق الذي اِلتهم عمري وها قد أمضيت خمسا وعشرين عاما أسلكه بحماس انقلب إلى فتور مع مرور الأيام... إنّها قصة حزينة مملّة تافهة لدرجة شعوري بالسأم كلّما تذكّرتها أو عزمت

على سردها لكنّني أعيشها بشكل يوميّ، وعليكم إذن تخيّل الرتابة المقيتة ودرجة السأم الذي أعانيه!!

حبّ بريّ

حين نظرت خلفي رأيتها. كانت تتهادى في مشيتها كأنّها فرس نهر بريّ.. وحين أطلقت تلك الزفرة عرفت أنّي غير نادم لأجل فراقها.. أتذكّر أنّي عرفتها في يوم ما بطريقة ما، كانت مشرقة ومضيئة مثل قمر بريّ. وكانت تلك الأنوار تتلألأ حولنا كوقع خيوط الشمس على بحر بريّ هادئ..

في ذلك الوقت اللذيذ من التيه وراء حماقتي كانت طفولتها اللذيذة ترتسم على وجهها وكان شعرها الطويل يتناثر في فضائنا كمعزوفة موسيقية بريّة. وكان نوع من الحمام البري يطير حولي مفلتا من رصاصة ومجاهدا ليبني عشّه، ورأيت مطرا بريّا ينساب خلف معزوفة شتويّة يوقّعها بالهطول الطويل على شرفات قصص قديمة قرأتها دون أن أتذكّر منها حرفا..

اليوم ها أنا رجل وها هي امرأة. رجل قد لا يذكر ما كان ولكنّه يمضي دائما باتجاه الأمس...

ما كان من السيد ج.ج وأخباره

بالنظر إلى الحالة التي أصبح عليها "ج.ج"، يمكنني القول أني نجحت أخيرا في فهم السرّ الذي طالما أحاط بحياته. بوسعي إذن أن أجلّيَ ذلك الغموض الذي طالما أربكني وسحر خلدي..

لقد أمضيت أيّاما طوالا أدرس حالته، الأيّام كما نعرف تنقسم إلى نهارات وليالي. أُمضي النهارات في المراقبة، وأمضي الليالي في التحليل والدّراسة. أدوّن كلّ ما يلزمني من ملاحظات، أعني كلّ ما استطعت الإحاطة به من اكتشافاتي.. ولمّا طال بي التفكير والتدوين ولازمني كعادة يوميّة، صرت أهذي في تفاصيلي اليوميّة الرخيصة وفي أمكنة لا علاقة لها ببحثي.. لقد أصبح شيئا يسكنني كما الأشياء التي تشغل المحاصر بالتفكير الطويل في كلّ وقت.. إنّ "ج.ج" ليس مجرّد شخص يعيش في غرابة بل لقد تحوّل إلى ظاهرة غريبة خارقة للعادة..

حينما أدخل المطبخ أجد نفسي هاذيا وأنا أحرق سيجارتي الرّخيصة دون تفكير. أقول مثلا في خلوتي تلك:" إذا كان "ج.ج" واعيا بالأخبار التي تصله، فكيف لم تحطّمه تلك الأخبار؟" ثم أستدرك فأقول:" لا، السيّد "ج.ج" غير قابل للتأثّر وبالتالي لن يتحطّم.. إنّه قويّ، وقوّته لا تتأتّى من إحساسه العميق باللاشيء بل تتأتّى من وعيه الكامل بالتّلونات التي تكتسي تلك الأخبار.."

يعتقد كثير من أعداء ج.ج بل وكثير من أصدقائه أيضا أنّه رجل مزاجيّ يجمع بين الغرور والسذاجة المفرطة. وأظنّني كنت أرى الشيء ذاته قبل أن أبدأ عملا اخترته بمحض إرادتي دون تكليف من أحد رغم حاجة رؤسائي لعمل بحثيّ علميّ شيّق يترصّد هذه الشخصية النافذة النادرة ويجلّي عنها أسرارها كما أصنع أنا الآن..

حين التقيته لأول مرة بعد أشهر طويلة من المراقبة سألته: أتعرفني؟ فزمّ شفتيه وفتح يديه، وكانت تلك إجابته إذ سرعان ما تلهى عني باللعب.

واجهته بتقاريري وصوري ومعلوماتي، فأزاحها جانبا وابتسم..

"لم تأت بجديد. كلّ الناس تعرف هذا، ربّما أولى لك أن تصير أبكما.." قالها وتركني لخيبتي، فضحكت. ضحكت طويلا وبشكل هستيري لأنّ هذا ما توقّعته من السيد ج.ج فعلا...

٢٠٢١/١١/١٨

وحدة

أمضيت عامي العشرين وحيدا.. حين أتذكّر ذلك تنتابني حسرة وندم ويتسرّب إلى قلبي السأم والخجل من سنواتي الأربعين..

في ذلك العام أنجزت أشياء هامّة كثيرة. رقصت مع العصافير قبل أن أعود لأصطادها، وبنيت للدجاج أقنانا واسعة. ركضت مع الريح ورضعت من الغمام ماءً، وبكيت، بكيت كأيّ تمساح حزين..

حينما كنت أنعزل وحيدا تنتابني رغبة في السفر الطويل إلى البلد البعيد. تنتابني أحلام مجنونة تجعلني مرتفعا عن الأرض بمقدار عشرين فرسخ. أراني في جزيرة بعيدة أراقص الذئاب وحيدا... أراني أطارد ضبيا خائفا يثير ضحكي أكثر مما يثير شفقتي. أراني منعزلا على شاطئ بعيد أتأمل البحر منتظرا زيارة حوريته الجميلة، أو خروج سمكة سحريّة يتحوّل الماء في يدها من ماء إلى ذهب..

الكتابة وأهلها

"ليس للسمكة يد" يقول صوت داخلي أقول نعم ولكنها براعة الحلم والخيال.

في أحلامي في تلك السنة رأيت أشياء مثيرة، مثيرة بحق. رأيت رأسا مقطوعة تكلمني بلا جسد، تهتف فرحا وتضحك سخرية.. كانت رأسا بعيون واسعة أحثو عليها التراب فتخرج من جديد لترعبني.. رأيت زعيمنا القديم متوجا بتاج من شوك وورد، يرتدي جبّته المنزلية ويهتف في قصر واسع آيل للسقوط أنا الملك أنا الملك ملّكت ابني وما ملك.. قصره كان واسعا بلا أثاث أبدا ويهتف صوت امرأة في أذني وحدهم الفقراء يحفلون بالضجر وبالضوضاء...

رأيت رجالا يحفرون بلا معاول، رأيتهم ينبشون بأظافرهم في الصخر وفي الرمل وفي التراب وفي الذهب. حين أطل من كوّة لأحييهم يرجمونني بالحبّ ويردّدون جميعا كأنهم يهتفون دونكم الرجل فلا يسرقنّ عرقكم.. أتركهم وأهرب بعيدا فألتقي في أحلامي بالنساء وبالعنبر وبالريح وبالعشاق.

العشاق لا يراقصون حبيباتهم إلا في أحلامي ولذلك فأنا لا أهنأ بمنامي...

رأيت كتابا بلا خيال تزيّن أغلفة كتبهم الصفراء وجوههم الكالحة. رأيت أقواما تافهة تتهافت على كتب زائفة، رأيت آخرين ملثمين بلثام من فضة يبتاعون الكتب، لا يأكلون ولا يشربون. يقولون إذا أكلنا وشربنا فمن ذا الذي يحشو عقولنا بكلام زائف ينسينا ضجرنا القديم، ومن ذا الذي يملأ جيوبنا من عرق المتوهمين التافهين..

رأيت فرسانا بلا خيول، وملوكا بلا صولجان، وحكماء بلا عصا، وأطفالا بلا مدارس.. رأيتهم كلّهم يبتاعون زبدا خفيفا في سوق واسع ومكتظّ.. يقولون من ذا الذي يرشدنا في حيرتنا ويوقظنا من هنائنا؟ رأيت لحما رخيصا لا يجد من يشتريه، ورأيت أفكارا تباع، رأيت المبتاعين يقبضون ولا يدفعون، ورأيت دما كثيفا على البلاط...

وحين بلغت الثلاثين تحقّقت كلّ أحلامي!!

١٦ نوفمبر ٢٠٢١

قهوة وسيّد ودرج

حين اجتاز الدرجات الأولى تذكّر قصّته معه...

عليه في البدء أن يطرق الباب، ولمّا يؤذن له فليدلف بهدوء ولتسبق ابتسامته تحيّته. عليه أن يلقي تحية مختصرة مكتنزة مع ذلك ما دلّ على التبجيل والاحترام والتقدير لشخصه الكريم ومنصبه العظيم.. ثم يتقدّم ويصافحه بمنتهى الانكسار والتواضع، فإذا ما أذن له في الجلوس جلس.. ثم بعد ذلك تكون القصّة المحيّرة..

حين استقرت قدماه على الدرجة الخامسة عشر توقّف يتذكّر وصايا أمّه؛ "لا تخرج عن حدود اللباقة، لا تضحك في حضرته بصوت عالٍ مهما بدا لك طيّبا، لا تثرثر كثيرا فتضيّع وقته، لا تصدّق ولا تردّد في وجهه تلك الشائعات المتهاوية، كن مختصرا ومشرّفا ومتواضعا."

حين انعطف مبتسما للذكرى لاقاه حارس المبنى فابتسم له بدوره، أكمل مسيرته فتبعه الحارس بنظرة متعاطفة، لم يقل

شيئا بشفتيه غير أنّ نظراته نحوه ملأته زهوا وخجلا فاجتاز سريعا الدرجات العشر اللاحقة.. عند وصوله إلى تلك النقطة تنهّد وقال:" الخامسة والعشرون.. منتصف الطريق بالضبط!!" جلس يستريح، خطر بباله مثوله أمامه، خفق قلبه، ارتعشت عظامه، زلزل كيانه.. ربّما عليه أن يكون لبقا ومختصرا ومفيدا. وهذا ما يفترض استعدادا خاصّا وتحكّما في الأعصاب المنهكة.. ويفترض أيضا هنداما يليق بتلك الهبّة، بتلك الوقفة، وبذلك التوازن المفروض، بدءًا من الطرق على الباب، ثم الولوج بابتسامة خجولة، التقدّم بخطوات رصينة، مدّ اليد للمصافحة، إلقاء تحيّة خفيفة سمجة، السؤال عن الأحوال بكلمات مختصرة جدّا كي لا يضيق صدر سيّدنا بإلحاحه، ثمّ الجلوس متى أذن له، وأخيرا عرض القضيّة بوضوح واختصار وبشكل سريع ودون الدخول في تفاصيل مملّة قد تزعج سيّدنا الكبير وتثير ضجره..

لم ينم ليلة البارحة. خنقه قلق مضجر وغزاه تفكير مرهق، وقالت أمّه:" نم يا بنيّ واتركها على الله.." ومن الفجر توكّل على الله بنصف نشاط ونصف إرهاق. شيء ما كان يحمل أقدامه، طاقة من مكان ما ملأته رغم إحساس بالتعب يهزّه ويعصف به فتمايل كورقة تتساقط في ريح خفيف. وحين وصل إلى المبنى كادت عيناه تُغمض من النعاس. لكنّه استعاد رباطة جأشه بطريقة ما لينبعث داخله حماس..

ربّما تأتّى حماسه من إيمانه بقضيّته العادلة، وربّما من ثقته بنزاهة السيّد..

سمع كثيرا عنه، كما رأى بعينيه أشياء لا تصدّق.. رأى بأم عينيه مثلا كيف عنّ للسيّد أن يلقي بورقة ماليّة من فئة متوسّطة في وجه متجهّم لمتسوّل فظّ، ورأى بنفسه كيف فتح صنبور المياه ليتدفّق في ساحة عموميّة مبلّلا سروال بذلته وسط تصفيق كبير وتصفير.. رآه كيف يتبختر مبلس الوجه

يحيي الجماهير ملوحا بيده بابتسامة صفراء مصطنعة.. رأى أشياء وسمع عن أشياء لا تُصدّق فعلا لغرابتها..

عندما أدرك أخيرا الدرجة الخامسة والثلاثين، انتابه تعب واختنق، لهث كما يلهث الكلب الظمآن. جلس مجدّدا وأناخ جماله يستريح... تحسس الملّف بيده وألقى عليه نظرة ناعسة قبل أن يضمّه من جديد إلى صدره المختنق. غزاه أمل كبير وارتياح مبهج فأغمض عينيه مسرورا. حينها غزاه دوار مضجر، أحسّ أنّ الدنيا تلتفّ حول جسده النحيل كما تلتفّ الأفعى...

لم يدر كم من الوقت مرّ على غفوته تلك. فتح عينيه فجأة ليجد الضوضاء حوله... خلق كثير يذهب ويجيء، يغدو ويروح، يصعد وينزل حوله. ابتسموا له كلّما مرّوا سخرية أو محبّة أو مجاملة وربّما مجرّد وفاء لعادة، فقد تكون تلك عادتهم لكن أيّ منهم لم يهتمّ له ولم يسأل. كانوا مشغولين بالصعود والهبوط وبالملفات كما هي العادة...

"ما تزال أمامي خمس عشرة درجة قبل أن ألقى السيّد الكبير" هتف داخله مستعيدا حماسه. استقام واقفا مسويا هندامه محدّثا نفسه بأنّها فرصة لا تتكرّر أبدا وعليه استغلالها والإيفاء بوعده. عليه أن لا يتأخّر بعد كلّ ما بذله من طاقة وجهد وحماس...

حين هبّ يصعد الدرجات الباقية اختنق.. وجد نفسه ضعيفا وبلا طاقة في المضيّ سريعا. كان يعتزم أن يقفز فيها سريعا كقطّ، غير أنّه انقلب سلحفاة بطيئة يبذل الجهد ليجتاز الدرجات درجة درجة كأنّما يصّعد جبلا...

أنهى الدرجات فاكتنفه رواق طويل. وبدا باب خشبيّ أسود مكسوّ بالجلد في آخر المطاف على بعد أمتار. بدا الرواق مظلما فلم يفلح ذلك المصباح الضئيل في كسر العتمة حوله. غزته وحشة داخله وهو يتقدّم، تراءت له تلك المسافة القصيرة أشق وأطول من المسار كلّه، مشى بطيئا بخطوات ثقيلة مرتعشة، وأحسّ بتعب يهدّه كأنّما يجاهد للخلاص من

جاذبيّة أرضيّة شديدة، أو كفأر يحاول الفكاك من مصيدة اللصاق..

حين وصل أمام الباب ارتعشت ركبتاه وارتجف. ظهرت على جبينه حبّات عرق وهمّ بالرجوع، غير أنّه خلافا لما عزم طرق الباب فجأة كأنّما حرّكته قوة أخرى فعلت خلافا لما يريد. وحين أدرك أنّه تورّط أدار المزلاج وأطّل برأسه...

بدا المكتب واسعا تغطّي الزرابيُّ المبثوثة بلاطه، ومدّ بصره فظهر ظَهْرُ السيّد وكتفاه. كان وجه حضرته يباشر ستائر صفراء تزيّنها دوائر بيضاء خاوية.. لم يأْذن له في الدخول غير أنّه سحب جسده إلى الداخل وأوصد الباب بلطف، وظل واقفا كأسير ذليل منتظرا أن ينعم بالتفاتة ونظرة...

انتظر طويلا حتى أصابه السأم، ربّما ربع ساعة أو نصفها، فالوقت في مثل هذه المواقف يتمطّى ويتّسع. يمرّ بطيئا قاتلا حينما نحن أسرى توتّرنا الحارق. تقدّم خطوتين بعد، التجاهل

والغفلة شجعاه على فعل ذلك فتقدّم لا إراديّا ثم استكان واقفا من جديد.

بدا السيّد هادئا، ربّما هو يتأمّل أو يصلّي، وربّما من عادته أن يعتزل ويفكّر في الصباح.

حين لم ينعم بالتفاتة أو نظرة منه فكّر أن يلقي في ظهره تحيّة، لكنّه سرعان ما خمّن ما بالأمر من إزعاج وسخف، فتنحنح كي ينتبه له...

عند تلك النحنحة استدار السيّد مطمئنّا بطيئا.

"مرحبا، أين القهوة؟" قال دون أن ينزعج ودون أن يتمعّن تفاصيل وجه زائره.

"اللعنة! لم يخبروني أنّه يحبّ القهوة." قال الزائر في نفسه، وتقدّم نحوه مبتسما، ألقى على مكتبه ملفّه وجلس... تذكّر وصايا أمّه سريعا، التقط أنفاسه وازدرد ريقه، ربّما ثرثر وربّما نسي أن يلقي في وجهه تحيّة الصباح، وربّما ألقاها، وربّما تلعثم وارتعش وهو يشرح قضيّته وربّما كان فوضويّا

بائسا... هو لا يذكر أيٍّ من تلك التفاصيل. هو لا يذكر غير رجفة أخذته سريعا وأضاعت كلّ شيء منه بينما ملأت ابتسامة هادئة وجه السيّد..

لم يعترض على دخوله المفاجئ، ولم يغضب لأجل جرأته. بل طمأنه قائلا:" كلّ شيء سيكون كما تحبّ بعد القهوة. فقبل القهوة لا أفتح عيني على فعل أو فهم..."

٢٠٢٢/٠٣/٢١

الكتابة وأهلها

Contents

زينب.. ٥

الظّلال ١٦

غراب بلا أسنان.. ٣٤

شيء ما على الرصيف..................................... ٥٨

لا فائدة.. ٧٢

صدفة.. ٩٤

الذباب والفكرة.. ١٠٥

قصبة في الريح ١٣٢

حيرة رأسمالي طيّب ١٣٧

استفزاز ١٤٦

رُهَابْ... ١٥٥

نصف رطل من اللّحم.. ١٧٠

شيء ما يحدث... ١٧٨

توهّم... ١٩٠

السأم ١٩١

حبّ بريّ ١٩٣

وحدة... ١٩٧

قهوة وسيّد ودرج ٢٠٠

الكتابة وأهلها